بلاغة الالتفات

في سور المؤمنون والنور والفرقان

د. عبد الجواد أحمد السيوطي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبد الجواد السيوطي

بلاغة الالتفات من سورة المؤمنون إلى سورة الفرقان

علوم قرآن

الطبعة الأولى

لوتس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبد الجواد السيوطي

بلاغة الالتفاف من سورة المؤمنون إلي صورة الفرقان

علوم قرأن

الطبعة الأولى

منشورات لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر

الإصدار رقم 000

الشهر 2022

رقم الإيداع

الترقيم الدولي ISBN

هاتف / واتسآب

+2 02/ 37390893 +2 01091985809

www.lotusfreepub.com

Info@lotusfreepub.com

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلاً له غير منقول؛ وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر، وجميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم
كلية الدراسات العليا
دائرة العلوم الشرعية
شعبة التفسيروعلوم القران

بلاغة الالتفات في القران الكريم من «سورة المؤمنون إلى سورة الفرقان» دراسة موضوعية تحليلية

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص العليا (الدكتوراه) في التفسير وعلوم القران

إعداد الباحث
عبد الجواد احمد عبد المولى

إشراف الدكتور
فضل المولى عبد الوهاب حماد إبراهيم

1443هـ 2021-م

استهلال

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

١) سورة النور: الآية (٣٤).

شكر وعرفان

الشكر لله سبحانه على أن يسر لي إتمام هذا البحث على الوجه الذي أرجو أن يرضى به عني.

ثم أتوجه بالشكر إلى جمهورية السودان حكومة وشعباً على ما قدموه لي ولكل طلاب العلم من تسهيلات حتى نكمل مسيرتنا العلمية، فجزاهم الله خيراً.

والشكر كل الشكر لمن رعاني طالبا في رسالتي هذه وأشرف عليها أستاذي الأستاذ الدكتور: فضل المولى عبد الوهاب حماد، له مني كل الشكر والعرفان. وقد تشرّفت بإشرافه عليّ في رسالة الماجستير، وكان هو السبب بتشجيعه إياي لمواصلة المسيرة العلمية، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وأتقدم بشكري الجزيل في هذا اليوم إلى أساتذتي الموقرين في لجنة المناقشة.

البروفسور/ عبد القادر محمد خير الفادني. البروفسور/ فاروق بابكر.

لتفضلهم عليّ بقبول مناقشة هذه الرسالة، فهم أهل لسد خللها وتقويم معوجّها وتهذيب نتوءاتها، سائلا الله الكريم أن يثيبهم عني خيرًا.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذتي الفضلاء بجامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

كما أشكر جميع الإخوة الذين ساعدوني ولو بكلمة نصح أو توجيه أو دعوة لي بظهر الغيب، وكل من أعانني على إنجاز هذا الرسالة وعلى رأسهم الدكتور الفذّ الحبيب محمد فضل المولى، والشيخ مصطفى مصطفى أحمد، والأستاذ محمد فتحي صالحين، فلجميعهم في القلب منزلة وإن لم يتسع المقام لذكرهم، فجزى الله الجميع خير الجزاء...

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلي آله وصحبه أجمعين وبعد..

فإن القرآن الكريم بحر خضم عظيم لا ينضب معينه، أينما يوجه القاصد وجهه إليه يأت بخير، وهذا البحر الزخَّار لا ساحل له، ولا يدرك له قرار، من أرد الوصول إلى إحصاء حقائقه لم يجد إلى ذلك سبيلا ،لان الله عز وجل خاطب أهل القرآن بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾[1].

والقرآن الكريم له لغته التي اختارها الله عز وجل لتكون وعاءً لكتابه، فتحمل إلينا فصاحة الألفاظ وبلاغة الأساليب التي تكون منهلا لفهم ما جاء في سوره وآياته وكلماته وحروفه، ولا شك أن لغة القرآن الكريم لغة تحمل مراد الله إلى خلقه في ترتيب وتنظيم إلهي يبين المعنى بعد المعنى، حيث خلا من الخلل بين أجزائه أو آياته أو جمله أو عباراته أو كلماته أو حروفه، لقد جاءت أجناس كلمات القرآن مختلفة الأساليب، متفاوتة في درجات البيان، فوقف الجميع أمام بلاغة القرآن الكريم إعظاماً وتقديراً وتقديساً، لأن نمط كلامه يجمع بين الفخامة والعذوبة فكان معجزة بينة للنبي- صلى الله عليه وسلم-.

إن جوانب الإعجاز في القرآن الكريم لن تخضع للإحصاء ولا يحيط بها استقصاء، وعلى العلماء الاستفادة من لغته التي خرقت العادة،

١) سورة الإسراء، الآية (٨٥)

وخرجت عن الإلف وفاقت حد العُرف، لذا آمن بهديه من آمن، وكفر به من كفر. قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ)[1].

إن الدقة التي تميز بها القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، تفوقت على أساليب البلغاء من العرب، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، وإذا جاء اللفظ نكرة كان ذلك لغرض، هذه الأساليب الموجودة في القرآن الكريم، جعلته يأسر القلوب ويحير الأفهام، لتظهر وجوه الإعجاز من كل جانب، في معانيه أو كلماته وأسراره، فتحدي به النبي الناس أجمعين، قال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ)[2].

لقد تميز القرآن الكريم بأساليب عدة من البدائع التي جاء بها في الكثير من آياته من الإيهام، والالتفات، والاطراد، والانسجام وغيرهم، فظهرت بدائع الأساليب في صور شتي، منها: لماذا نكَّرَ الإناث وعرف الذكور في قوله تعالى (لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ)[3]. كذلك إذا كان اللفظ مفرداً كان ذلك المقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعاً كان الحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في بعض الدلالة، وقد يفضل كلمة على أخرى والكلمتان ظاهراً بمعنى واحد، بل قد يردف لفظة على أخرى وهما في الظاهر بمعنى واحد، وفي مواطن

١) سورة فصلت، الآية (٤١).
٢) سورة الإسراء، الآية، (٨٨)
٣) سورة الشورى، الآية (٤٩)

جمع القرآن بين لفظين وهما بمعنى واحد أو على الأقل بينهما تشابه كبير في الاستعمال والدلالة.

لذا رجوت من الله أن يفتح عليّ، وأن أعطر قلمي بنيل الشرف في وضع لبنة في صرح القرآن الكريم الشامخ في «أسلوب الالتفات في القرآن الكريم من سورة الأنبياء إلى سورة الفرقان» رغبة في خدمة كتاب الله - عز وجل-. وذلك حسب فهمي للآيات القرآنية موضع الالتفات من خلال رجوعي لكتب العلماء السابقين ممن لهم علاقة بتفسير كتاب الله تعالى، وهذا البحث جمعت فيه من كتب السابقين ما قمت بدراسته وتحليله، من كتاب الله تعالى بقدر ما فتح الله به عليّ، ووضعتها بين أيديكم، فإن صادفت منكم قبولا فيها ونعمت وهذا فضل الله وحده، وإن لم يصادف وكان فيها من الأخطاء، فهذا جهد المقلّ وكل بني آدم خطاء، راجياً منكم تصويب الخطأ، وتقويم المعوج فالكمال لله وحده والعصمة لرسوله – صلى الله عليه وسلم -.

الفصل الأول
مفهوم الالتفات
عند المفسرين وعلماء البلاغة

المبحث الأول

مادة الالتفات ومفهومه

المطلب الأول: الالتفات لغة:

لغة: من مادة(ل) (ف) (ت) وفي هذه المادة تقول المعاجم.

«لفت وجهه عن القوم: صرفه وتلفت، صرف إلى الشيء: صرف وجهه إليه، ولفته لفتا لواه على غير جهته، ولفته عن الشيء يلفته لفتا، يقول تعالى (قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ) [سورة يونس: ٧٨]. واللّفْتُ ليُّ الشيء عن جهته»[1].

وكذلك في معجم مقاييس اللغة لابن فارس يقول: اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على الليّ وصرف الشيء عن جهته المستقيمة[2].

(لفت) اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على اللي وصرف الشيء عن جهته المستقيمة. منه لفت الشيء: لويته. ولفت فلانا عن رأيه: صرفته

وفي أساس البلاغة يقول الزمخشري وهو من علماء التفسير المهتمين بالبلاغة: التفت إليه وتلفّت، لفتُّهُ عن رأيه، صرفه، وفلان يلفت الكلام لفتًا: يرسله على عَواهِنِه لا يبال كيف جاء، ولفت اللحاء عن العود قشره[3].

ومنه لا يخرج المعنى اللغوي لمادة لفت عن الصرف والتيّ عند معظم المعجميين تعني الالتفات اصطلاحاً اضطربت أقوال البلاغيين في ماهية

---

١) لسان العرب، ابن منظور (٨٤/٢). باب التاء مادة(ل. ف. ت).

٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (٢٥٨/٥)، باب اللام. أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. بتصرف.

٣) أساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري (١٧٣/٢)، باب اللام. تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

الالتفات وسبب ذلك عائد إلى التعريف في اللغة فكما رأينا مادة لفت تندرج تحتها دلالات لغوية كثيرة بعضها حقيقي والبعض الأخر مجازي. فمن قائل إن الالتفات هو الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر مخالفا له، وهو عند العلوي في الطراز هو: العدول من الغيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة[1].

وجاء في كتاب (البلاغة العربية) أن الالتفات: هو في اللّغة تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعيّ إلى وضْعٍ آخر.

****

١) الطراز المتضمن لأسرار علوم البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي اليمني، (ص: ١٣٢). بتصرف.

المطلب الثاني: الالتفات اصطلاحاً:

وفي اصطلاح أهل التفسير البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: «التكلّم - والخطاب - والغيبة» مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التعنها»[1].

ويُلقب الالتفات بشجاعة العربية على معنى أنّ البلغاء كانت لديهم شجاعة أدبية بيانية استطاعوا بها أن يفاجئوا المتلقي بالتنقل بين طرق الكلام الثلاثة، وهو من الأساليب البلاغية ذات اللطائف النفيسة وقد تكرر استخدامه في القرآن الكريم بكثر، وهو من فنون القول يشبهه تحريك آلات التصوير السينمائي بنقلها من مشهد إلى مشهد أخر في المختلفات والمتباعدات التي يُراد عرض صور منها، ويهدي الذوق الأدبي السليم إلى استخدام الالتفاتات استخداما بارعًا يحقق به البليغ الفوائد في نفس المتلقي أو فكره، مع ما يحقق به من الاقتصاد والإيجاز في العبارة[2].

إذن فدلالة مادة لفت كما رأينا تنصرف دائما إلى معنى الانحراف عن المألوف من القيم أو الأوضاع، أو الأنماط من السلوك، وهذا مما يبرر تفضيله ورواجه بدلا من المصطلحات البلاغية الأخرى التي وضعت دلالة على هذا الباب من أبواب البلاغة.

١) البلاغة العربية عبد الرحمن الحَبَنَّكَة الميداني (٤٧٩/١)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. بتصرف.
٢) «المرجع نفسه» (ص: ٤٨٠).

ويقول بعض أهل البلاغة إن الالتفات هو خلاصة علم البيان ويروا فيه بديع البديع لما فيه من انصراف الخطاب من حالة إلى أخرى ومن وضعية إلى غيرها ؛ مما يتلاءم مع نفسية المتكلم أوحال السامع أو جماعهما. فالمتكلم يتنقل عبر أنساق الكلام المختلفة بما يحرره مما في النسق الواحد من الرتابة، وما يبرر قدرته على تصريف القول، وهذه الدراسة تتجه إلى توضيح ذلك وبيان ما يكون عليه التصريف من وجوه، وما ينحوا إليه من تلوين لمعنى الخطاب؛ إذ الخطاب هو قاعدة المساجلة المفيدة بين متكلم و متلق تربطهما علاقة مفاعله[1].

****

١) لغة الخطاب القرآني بين جمالية البيان وصرامة المنطق، رسالة لنيل درجة الدكتوراه للباحث. ابراهيم فواتيح عبد الرحيم. ص ٣٤٤. جامعة وهران الجزائر. سنة ٢٠١٢م - ٢٠١٣م

المبحث الثاني
الالتفات عند البلاغيين
وأهل التفسير قديما وحديثا

المطلب الأول: الالتفات عند علماء البلاغة القدامى:

جاء في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي[1] (ت: 626هـ). في سياق حديثه عن مصطنعي القول المبين، قوله : «واعلم أن هذا النوع: أعني نقل الكلام عن الحكاية على الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها عن الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريه لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك أليس قرى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديما ولا أباحت لهم حريما أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد، فإن الكلام المفيد عند الإنسان لكن بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها. قال ربيعة بن مقروم[2]:

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا * وأخلفتك ابنة الحر المواعيد**

فالتفت هنا كما ترى حيث لم يقل وأخلفتني»[3].

١) السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، سراج الدين: ولد بخوارزم سنة ٥٥٥هـ. عالم بالعربية والأدب. وتوفي بخوارزم سنة ٦٢٦هـ. من كتبه مفتاح العلوم، و رسالة في علم المناظرة. بتصرف: الأعلام للزركلي(٢٢٢/٨).

٢) ربيعة بن مقروم بن قيس الضبي: من شعراء الحماسة. من مخضرمي الجاهلية والإسلام. وفد على كسرى في الجاهلية، وشهد بعض الفتوح في الإسلام. وحضر وقعة القادسية. بتصرف: الأعلام للزركلي (١٧/٣).

٣) مفتاح العلوم السكاكي (ص: ١٩٩). بتصرف.

ففي هذا البيت التفات من التكلم في قوله (بانت سعاد) إلى الخطاب في قوله:

(وأخلفتك ابنة الحر).

ويُعد أبو عبيدة معمر بن المثنى»[1] من أوائل اللغويين الذين تحدثوا عن الالتفات في ثنايا كتابه «مجاز القرآن» الذي ألفه لتفسير بعض الألفاظ والمعاني القرآنية، فتراه يقول: «ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ثم تُركت وحُولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [سورة يونس: ٢٢]، وقد سماه الترك والتحويل[2].

وذكره أبو عبيدة بقوله: «و العرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب و المعنى للشاهد فترجع إلى دلالة مادة لفت كما رأينا تنصرف دائما إلى معنى الالتفات والانحراف عن المألوف من القيم أو الأوضاع، أو الأنماط من السلوك، وهذا مما يبرر تفضيله ورواجه بدلا من المصطلحات البلاغية الأخرى التي وضعت دلالة على هذا الباب من أبواب البلاغة. وأشار إليه ابن قتيبة[3]. في كتابه «تأويل مشكل القرآن»، وأدرجه في مخالفة ظاهرة

١) أبو عبيد النحوي معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، من أئمة العلم بالأدب واللغة. ولد سنة ١١٠هـ. وتوفي في البصرة سنة ٢٠٩هـ. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان اباضيا، شعوبيا، من حفاظ الحديث. قال ابن قتيبة: كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتبا. ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه. له نحو ٢٠٠ مؤلف، منها نقائض جرير والفرزدق، ومجاز القرآن. بتصرف: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢٣٧/٥). تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م. الأعلام للزركلي (٢٧٢/٧).

٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة (١١/١). تحقيق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١هـ بتصرف.

٣) أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. كان يحفظ كتب أبيه وهي ٢١ كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار. ولي القضاء بمصر سنة ٣٢١هـ وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب. وقيل إنه مات وهو على القضاء. وكانت

اللفظ معناه[1].

ويرجع الفضل في تسمية المصطلح إلى الأصمعي[2] « ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الأصمعي هو أول من اقترح للالتفات اسمه الاصطلاحي في البلاغة حيث حُكي عن إسحاق الموصلي قال: قال لي الأصمعي أتعرف التفاتات جرير؟ قال: فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تُودعنا سُليمى * بعُود بشامة ألا سقي البشامُ**

طَرب الحمام بذي الأراك فشافني * لا زلت في غُلل و أيك ناضر**

ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له، والتفت إلى الحمام فدعا له.

وهذا ابن المعتز[3] « نجده تناول الالتفات تحت ما أسماه محاسن الكلام، وكان الالتفات أول تلك المحاسن ويعرفه بقوله: «هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى أخر،

وفاته بمصر سنة ٣٢٢هـ.

١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري (ص: ١٧٧). تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٢) الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد في البصرة سنة ١٢٢هـ. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر. قال الأخفش: ما رأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعي. له تصانيف كثيرة، منها الإبل، وشرح ديوان ذي الرمة. سمع شعبة بن الحجاج والحمادين ومسعر بن كدام وغيرهم توفي بالبصرة سنة ٢١٦هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (١٦٢/٤). وفيات الأعيان (١٧٠/٣).

٣) عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، تولى خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد سنة ٢٤٧هـ، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وصنف كتبا، منها: البديع، و أشعار الملوك، و طبقات الشعراء، وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس: آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي ومات مخنوقا سنة ٢٩٦هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (١١٨/٤).

وهو يرى أن الالتفات ينقسم إلى قسمين: نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، ونوع من الإخبار إلى المخاطبة[1].

والأمر ذاته عند قدامة بن جعفر[2] حيث يعرف الالتفات في الشعر بقوله: «ومن نعوت المعاني الالتفاف - وبعض الناس يسميه الاستدراك - وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ما قدمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه..»[3].

وابن جني[4] في كتابه الخصائص نجده لا يذكر مصطلح الالتفات، وإنما ما له صلة به في فصل من فصول باب: الشجاعة العربية، أما الفصل الذي سماه: في الحمل على المعنى، تناول فيه تأنيث الذكر، وتذكير المؤنث وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد وغير ذلك ومثل لذلك من القرآن والشعر[5].

أما أبو هلال العسكري[6] في كتابه «الصناعتين» نجده يخصص فصلاً

---

١) البديع في البديع، أبو العباس، عبد الله بن محمد ابن المعتز (ص: ٣٢). الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. بتصرف.

٢) أبو الفرج، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، الكاتب، كان من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة. كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده،. يضرب به المثل في البلاغة. له كتب، منها: نقد الشعر، و جواهر الألفاظ. وتوفي ببغداد سنة ٣٣٧هـ. الأعلام للزركلي (١٩١/٥).

٣) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة ابن جعفر (ص: ٥٣). الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ. بتصرف.

٤) أبو الفتح: عثمان بن جني الموصلي. من أئمة الأدب والنحو، وله شعر جيد. وكان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي. من تصانيفه شرح ديوان المتنبي و الخصائص. وسر الصناعة وتوفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ. عن ٦٥ سنة. بتصرف: الأعلام للزركلي (٢٠٤/٤). نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، كمال الدين الأنباري (ص: ٢٤٤)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٣٦٢/٢)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة. بتصرف.

٦) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري. عالم بالأدب، له

للالتفات، وقد خصص له ضربين:

فواحد أن يفرغ المتكلم في المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه، يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به، ومثل لذلك بما قاله الأصمعي عن التفاتات جرير.

والضرب الثاني مثل ما قاله قدامة بن جعفر في أن يأخذ الشاعر في المعنى وهكذا، وقد مثل لذلك بقول المعّطل الهذلي:

تَبين صلاةُ الحرب منّا ومنهم * إذا ما التقينا والمُسَالم بادن**

فقوله: «والمسالم بادن» رجوع للمعنى الأول تبين صلاة الحرب[1].

وها هو أبو بكر الباقلاني[2]. يصرح أن معنى الالتفات هو الاعتراض، وقد عدّه تحت مبحث علم البديع، حيث يقول: «معنى الالتفات هو: الاعتراض في الكلام».

وقد استدل بقول جرير:

متى كان الخيام بذي طَلوع * سُقيت الغيث أيتّها الخيام**

وقوله: «سقيت الغيث» اعترض، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتًا، وكان ليقول: متى كان الخيام بذي طلوع أيتها الخيام؟ فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه كان ذلك التفاتًا، وقوله عز وجل: (إِن يَشَأْ

شعر. نسبته إلى (عسكر مكرم) من كور الأهواز. من كتبه: جمهرة الأمثال، و كتاب الصناعتين، وديوان المعاني توفي بعد سنة ٣٩٥هـ الأعلام للزركلي (١٩٦/٢). معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٩١٨/٢)، تحقيق: إحسان عباس الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١) الصناعتين أبو هلال العسكري (ص: ٣٩٢). بتصرف.

٢) القاضي أبو بكر: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت اليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ. وسكن بغداد فتوفي فيها سنة ٤٠٣ هـ كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه إعجاز القرآن. الأعلام للزركلي (١٧٦/٦). بتصرف.

يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ) [سورة فاطر: ١٦]. فالاعتراض هنا: وما ذلك على الله بعزيز[1].

والملاحظُ كذلك في كتاب «فقه اللغة وسر العربية» للثعالبي[2] أنه عرف الالتفات بأن تذكر الشيء وتتم معنى الكلام به، ثم تعود لذكره كأنّك تلتفت إليه، أو قل مثل بقول أبي الشعب: فارقت شعبًا وقد قُوست من كبري ... لبستُ الحلتان الشكلُ والكبرُ

فذكر مصيبته بابنه مع تقوسه من الكبر، ثم التفت إلى معنى كلامه فقال لبست الحليتان، وكما قال تعالي: (لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ) [سورة طه: ٦١]. فنهى عن الافتراء ثم وعد عليه، فقال: (وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ)[3]

والأمر ذاته عند ابن رشيق القيرواني فهو يجمع بين الالتفات الاعتراض، والاستدراك، حيث يعرف الالتفات بقوله: «هو الاعتراض عند قوم وسماه آخرون الاستدراك، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا من معنى ثم يعرض له عند غيره فيعدل من الأول إلى الثاني فيأتي إليه ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول كقول كُثَيِّر:

لو أنّ الداخلين و أنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا**

---

١) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني (ص: ١٠٠)، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م. بتصرف.

٢) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، الثعالبي: من أئمة اللغة والأدب والتفسير. من أهل نيسابور. كان فراءًا يخيط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته ولد سنة ٣٥٠هـ. اشتغل بالأدب والتاريخ، فنبغ. وصنف الكتب الكثيرة. من كتبه: يتيمة الدهر، وفقه اللغة. وتوفي سنة ٤٢٩هـ. الأعلام للزركلي (١٦٣/٤).

٣) فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي (ص: ٢٧٧). بتصرف.

فقوله: «وأنت منهم» اعتراض كلام في كلام[1]. فقوله ألا كذبوا اعتراض.

أما ضياء الدين بن الأثير[2] في كتابه المثل السائر: يقول عن الالتفات: «وهذا النوع ما يليه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر. أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك ويسمى أيضا «شجاعة العربية» وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.. حتى قال والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب؛ لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحدّ بحدّ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها»[3].

ومن خلال هذه التطوافة السريعة مع المفسرين وأهل اللغة في مفهومهم عن الالتفات، نجد أن المشهور عند الجمهور - وهذا هو مقابل رأي

---

١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني (ص: ٢٣٦). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. بتصرف.

٢) نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب: وزير، من العلماء الكتاب المترسلين. ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٨هـ ، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه المؤرخ (علي) والمحدث (المبارك) من كتبه « كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب «المثل السائر في أداب الكاتب والشاعر، وتوفي سنة ٦٣٧هـ الأعلام للزركلي (٣١/٨). بتصرف.

٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير (٣/٢)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة. القاهرة. بتصرف.

السكاكي في معنى الالتفات- أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه[1] بطريق آخر منها[2].[3].

****

١) أي: التعبير عن ذلك المعنى وهذا صريح في أنه لا بد من ايجاد معنى الطريقين.
٢) أي يشترط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر أو يترقبه السامع ولابد من هذا القيد حتى يكون التفاتا عند الجمهور.
٣) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني (٨٦/٢)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة. بتصرف.

المطلب الثاني: الالتفات عند علماء التفسير القدامى:

أما الزمخشري وهو من علماء التفسير[1]. في كتابه تفسير الكشاف: نجد أنه ركز على التفاتات الضمائر، ومن هنا نرى الاتفاق بين العالِمَين الجليلين السكاكي والزمخشري إنما كان في تحديد معنى الالتفات وتعريفه، فقد اتفقا على أنه نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب فمن الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم. واتفقا على أنّ نقل الكلام من أسلوب إلى آخر أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريه لنشاطه»[2].

وقد تطرق العلماء القدامى إلى الالتفات وأشاروا إليه وكلٌ يراه تحت مبحث يراه مناسبا له، فمنهم من جعله تحت مبحث علم البيان، ومنهم من جعله في علم البديع، وآخرون جعلوه تحت علم المعاني، وهو لون من التأرجح لم يتعرض لمثله أي علم في مباحث علم البلاغة وذلك نظرا لبداية التأليف فيه شأنه شأن أي علم من العلوم.

وفي هذا يقول بعض أهل البلاغة إن الالتفات هو خلاصة علم البيان ويروا فيه بديع البديع لما فيه من انصراف الخطاب من حالة إلى أخرى ومن وضعية إلى غيرها؛ مما يتلاءم مع نفسية المتكلم أوحال السامع

---

١) أبو القاسم: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد سنة ٤٦٧ بزمخشر (من قرى خوارزم) وكان معتزلي المذهب، مجاهرا به، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها سنة ٥٣٨هـ. أشهر كتبه: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، وأساس البلاغة. الأعلام للزركلي (١٧٨/٧). بتصرف.

٢) أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، أحمد مطلوب (ص: ٢٧٢). الناشر: وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠م.

أو الاثنين معاً. فالمتكلم يتنقل عبر أنساق الكلام المختلفة بما يحرره مما في النسق الواحد من الرتابة، وما يبرر قدرته على تصريف القول، وهذه الدراسة تتجه إلى توضيح ذلك وبيان ما يكون عليه التصريف من وجوه، وما ينحوا إليه من تلوين لمعنى الخطاب؛ إذ الخطاب هو قاعدة المساجلة المفيدة بين متكلم و متلق تربطهما علاقة مفاعله.

وقال الإمام السيوطي: والالتفات نقل الكلام من أسلوب إلى آخر أعني من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول وهذا هو المشهور وقال السكاكي: إما ذلك أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره وله فوائد: منها تطريه الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد وهذه فائدته العامة. ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله كما سنبينه مثاله من التكلم إلى الخطاب ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عناية تخصيص بالمواجهة قوله تعالى: {وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون} والأصل «وإليه أرجع «فالتفت من التكلم إلى الخطاب ونكتته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلَطُّفا وإعلاما أنه يريد لهم ما يريد لنفسه ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله تعالى[1].

****

١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٨٩).

المطلب الثالث:
الالتفات عند علماء البلاغة والتفسير المحدثين:

ننتقل إلى المحدثين من علماء البلاغة الذين استوقفهم الالتفات وإن كان البعض منهم لم يركزوا عليه كثيراً فقل ما تجده في كتاباتهم ولكن نذكر منهم بعضاً مما وجدناه في كتبهم.

نجد ممن تطرقوا إليه د. محمد بركات حمدي أبو علي ، فقد خص الالتفات بفصل يستغرق فيه حوالي أربعين صفحة في كتابه «دراسات في البلاغة وفنونها»، وقد اعتبر الالتفات «سمة العبقرية ومقدرتها الفنية»[1].

ويشير عبد الجليل مرتاض إلى الالتفات ضمن ما سماه ابن فارس: سنن العرب في كلامها، ويذكر أنه قديم وسره الانتقال بصورة مفاجئة من خطاب الغائب، أو العكس، أو الانطلاق من الغائب مرورا بضمير المتكلم وهو ليس بالأمور الهينة في أي خطاب أدبي[2]. كما أضاف قائلًا عن أن الالتفات إنما هو عبارة عن تراكيب عتيقة وأصيلة وأنه يدخل في صميم الخطابات الابداعية لما فيه من تنويع بطرق تقنية عالية، وسرّ ذلك أن الانتقال بصورة مفاجئة من خطاب إلى غائب أو العكس أو الانطلاق من الغائب مرورا بضمير التكلم ليس بالأمر الهين في أيّ خطاب أدبي[3].

١) دراسات في البلاغة، أحمد بركات (ص: ١٥٥) دار الفكر- عمان- الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
٢) العربية بين الطبع والتطبيع، عبد الجليل مرتاض (ص ١٠٨-١٠٩). ديوان المطبوعات الجامعية. طبعة. ١٩٩٣م. بتصرف
٣) المرجع السابق (ص: ١٦). بتصرف.

ويعرفه د. محمد السيد شيخون، بقوله: «هو فن من البلاغة ملاكه الذوق السليم والوجدان الصادق، ويلقب بشجاعة العربية ... وهو من قبيل خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر[1].

أما د. محمد حسين أبو موسى[2] قد أشار إلى ذلك ثم قال:» ما يُعزى إليه الأصمعي التفاتات جرير وما قيس عليه كله من الاعتراض وليس من الالتفات»، ويشير إلى قيمة الالتفات من خلال الزمخشري فيقول: «وإذا كان الالتفات إلى الغيبة أدرك الزمخشري منه معنى التشهير والنداء حتى كان المتكلم بهذا الالتفات يخيل أنّه يحكي هذا الأمر العام ويرويه لكل عاقل.. وقد يعدل المتكلم إلى الخطاب تخييلا بالإقبال على المخاطب ومواجهته بزيادة اللوم والإنكار»[3].

في حين أننا نجد الطاهر بن عاشور وهو من أشهر علماء التفسير المعاصرين[4] في تفسيره التحرير والتنوير، وهو يتكلم عن الالتفات فيقول: « والالتفات من أفانين الكلام.. وهو نقل الكلام من أحد عن طريق التكلم أو الغيبة إلى طريق آخر منها وهو من الفصاحة وسماه ابن

---

١) البلاغة الوافية، محمد السيد شيخون (ص:١٢١)، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٨م. بتصرف.

٢) محمد محمد حسنين أبو موسى عالم لغوي وأستاذ البلاغة في جامعة الأزهر، ولد سنة ١٩٣٧م. بمركز دسوق في محافظة كفر الشيخ أقصى شمال جمهورية مصر العربية. ونشأ الأستاذ محمد أبو موسى نشأة دينية في قرية من قرى محافظة كفر الشيخ، حيث التحق بالأزهر الشريف وتدرج في مراحله الدراسية حتى تخرج في كلية اللغة العربية، وكان من أوائل الكلية فعُين معيدًا بها، وحصل على درجة التخصص الماجستير ثم الدكتوراه، وترقى في واختير عضوًا في اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة بقسم البلاغة بجامعة الأزهر، ويعمل الآن بالتدريس لمادة البلاغة في قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر. اختير عضوًا في هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وله دروس أسبوعية يلقيها في جامع الأزهر منتصف كل أسبوع يشرح فيها الكتب البلاغية.

٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في تفسير البلاغية، د. محمد حسين أبو موسى، مكتبة وهبة – مصر. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٤) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده بتونس سنة ١٢٩٦هـ. ودراسته بها. عين (عام ١٩٣٢) شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، منها: التحرير والتنوير، و مقاصد الشريعة الإسلامية، وتوفي بتونس سنة ١٣٩٣هـ. الأعلام للزركلي (١٧٤/٦). بتصرف.

جني شجاعة العربية؛ لأن التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال ما نقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن الكريم ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال. ومن أمثلة ذلك ما قاله تعالى: (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا) [سورة التحريم: ٤]. فجاء بلفظ القلوب جمع مع أن المخاطب امرأتان قلم يقل قلباكما تجنبا لتعدد صيغة المثنى، ومن ذلك قوله تعالى:

(وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا) [الأنعام: ١٣٩].

فجاء بضمير جماعة المؤنث: (وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ) ثم أتى بمذكر مفرد:(وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا) في كلمة محرم[1].

ونختم برأي إبراهيم أنيس في كتابه «أسرار اللغة» نجده يعرض ما يمتّ للالتفات بصلة، كاستعمال الجمع وإرادة المثنى كما في قوله تعالى: (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا) [التحريم:4]، وقوله تعالى: (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا) [سورة المائدة: ٣٨]. حيث يرى أن اللغة إذا سلكت في العلاج لا تسلك مسلكا منطقيًا ويرى أن علاج اللغة للمفرد والجمع أمر عجيب وشواهده لا تكاد تقع على حصر، قد يستعمل المفرد ويراد به الجمع ومن ذلك قوله تعالى:(هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي) [سورة الحجر: ٦٨]. وقوله: (فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ) [الشعراء: ٧٧]. ويقطع الأمر جازمًا ويقول: «ومهما اجتهد اللغويون أنفسهم في تبرير مثل تلك الاستعمالات فلن يستطيعوا إنكار أنها لا تمتّ بالمنطق بصلة، وذلك لأنّ للغات منطقها الخاص[2].

١) التحرير والتنوير بن عاشور(١٠٩/١)، الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس سنة النشر: ١٩٨٤هـ بتصرف.

٢) من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس (ص: ١٥٧). بتصرف.

المبحث الثالث:

أنواع الالتفات وجماليّاته وفوائده

المطلب الأول: الالتفات في الضمائر:

الجدير بالذكر في هذا المقام إنّ هناك من البلاغيين من جرى على تضييق دائرة الالتفات وقصرها على نوع واحد فقط، ومن هؤلاء: الزمخشري، السكاكي، القزويني، بحيث جعلوا الالتفات مختص بالضمائر فقط ومع المخالفة بينهم لتشمل على ستة أنواع أو ما تسمى التفات الضمائر وهي على النحو الآتي:

١- الانتقال من الحكاية إلى الخطاب:

كقوله تعالى في حكاية ما كان من الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة لنصرة الرسل الثلاثة قال تعالى: (وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾) [سورة يس: ٢٢]. قوله: (وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي) معطوف على محذوف دل عليه حرف العطف «الواو»، ويمكن تقديره أن تقول: قالوا له أتؤمن بما جاء به هؤلاء المرسلين وتعبد الربّ الذين يدعونه لعبادته؟ قال: نعم، أؤمن بما جاء به، أو أعبد ربي وما لي لا أعبد الذي فطرني ثم انتقل من التكلم إلى الخطاب، فقال لهم: إليه ترجعون، فخاطبهم مع سياق الكلام أن يقول إليه: أرجع يوم الدين ليحاسبني ويجازيني كما يرجع إليه سائر الناس وأنتم منهم، فأوجز العبارة أشعرها بأسلوب غير مباشر أنهم قد كان عليهم أن يؤمنوا كما آنت هو لأنهم سيرجعون إليه يوم الدين وسيحاسبهم وسيجازيهم على أعمالهم[١].

١) البلاغة العربية، الميداني (ص: ٤٨٥). بتصرف.

٢- الانتقال من التكلم إلى الغيبة:

وكذا الابتداء بالغيبة مع أن مقتضى الظاهر يستدعى التكلم أو الخطاب كقوله تعالى: (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢) [سورة الكوثر: ١ – ٢]. فقد جاء الكلام أولًا على طريقة التكلم: (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ) ثم انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) ولم يقل فصّل لنا، والحكمة من هذا الالتفات التذكير بحق الربّ المنعم بعطاءات الربوبية في أن يعبده عباده ويصلوا له، مع الاقتصاد في التعبير والإيجاز في القول، وقوله عز وجل: (۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣) [سورة الزمر: ٥٣]. كان مقتضى الظاهر أن يقول: لا تقنطوا من رحمتي إني أغفر الذنب جميعًا ولكن حصل عدول عنه على (من رحمة الله) للإشعار بأن صفات الله الجليل العظيم أن يغفر ذنوب من ينيبون إلى ربهم ويسلّمون له، كما جاء في الآية التالية قوله تعالى: (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ) [الدخان: ٣ – ٦]. إذ بدأ الأسلوب في هذه الآية عن طريق التكلم عن نفسه: (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآ، إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ)، وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب خلافًا لمقتضى الظاهر:

(رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)، وفائدة هذا الالتفات التذكير بربوبية الله والتوطئة لذكر بعض صفاته التي هي مقتضيات

ولوازم كونه ربا مع الإيجاز والاقتصاد في العبارة[1].

٣- الانتقال من الخطاب إلى التكلم:

وكذا الابتداء بالتكلم مع أن مقتضى الظاهر يستدعى الخطاب أو الغيبة، ومن أمثلة ذلك قول علقمة بن عبدة:

طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب**
يُكلفني ليلى وقد شطّ وليّها * وعادت عوادٍ بيننا وخطوب**

يقول: صرت مغرما بحب النساء في إثر ذهب شبابك، ووقت حين مشيبك، وخطوب الدهر حالت بيني وبينك ومنعتني منها، وهنا بدأ يتحدث عن نفسه مخاطبًا فقال: طحا بك قلب، وانتقل إلى أسلوب التكلم في الحديث عن نفسه، فقال في البيت الثاني: يُكلفني حب ليلى وقد بعُد قربها[2].

٤- الانتقال من الخطاب إلى الغيبة:

قول الله عز وجل:(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾) [سورة يونس: ٢٢]. كان الكلام في صدر الآية جاريا على أسلوب الخطاب (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ) بضمير المخاطب « أنتم»، وبعد ذلك انتقل الكلام على أسلوب الحديث عن الغائب، (وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟

١) «المرجع نفسه» (ص: ٤٨٧). بتصرف.
٢) «المرجع نفسه» (ص: ٤٨٨). بتصرف.

بِهَا) وفائدة هذا الالتفات بيان أنّ الذين تكون فيهم هذه الظاهرة التي تحدث عنها النص ليسوا جميع المُخاطبين، بل فريق منهم، فمن الحكمة الحديث عنه بأسلوب الحديث عن الغائب ، مع ما في الحديث عن الغائب من الإعراض والتأنيب على ما يكون منهم وهو ما جاء في النص من تأنيبهم صراحة، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا) [يونس: ٢٣]. ولو تتابع الكلام وفق أسلوب الخطاب دونما حصل في النص من التفات لكان التأنيب موجها لكل الناس، مع أن فيهم الصالحين الذين لا تظهر فيهم هذه الظاهرة القبيحة من الظواهر المنافية للسلوك الديني المطلوب من العباد، فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بكم بريح طيبة فرحتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة[1]. وقوله تعالى (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ) [سورة الأنبياء: ٩٢ – ٩٣]. حيث قوله: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ) في سبيل الحديث بالمخاطب ثم انتقل إلى الحديث الغائب (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ) وما يظهر لنا في هذا النص السابق فالذين تقطعوا أمرهم بينهم ليسوا كل أتباع الرسل إذ فيهم

١) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير (٢/ ١٤٣) أساليب بلاغية، أحمد مطلوب (ص: ٢٨١). ، الالتفات نحويا في القراءات القرآنية (ص ١٧٤) شوكت علي درويش المكتبة الوطنية، عمان- الأردن، د. ط، ٢٠٠٨م.

من حافظوا على وحدة الأمة الربانية، وحيثما بعث الله الرسول الخاتم اتبعوه مؤمنين، وقال الشاعر:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني * حياؤك إنّ شيمتك الحياءُ**

كريمٌ لا يغيره صباح * عن الخلق الجميل ولا مساءُ**

في البيت الأول واجه ممدوحة بالخطاب(حياؤك)، وفي البيت الثاني انتقل من الخطاب إلى الغيبة (كريم لا يغيره)، وذلك لأن الشاعر أراد أن يواجه لمدحه ويعلن على الملأ أنه كريم ذو خلق جميل [1].

٥ - الانتقال من الغيبة إلى التكلم:

يقول الله تعالى: (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩) [فاطر: ٩]. الكلام في صدر الآية يوافق أسلوب الحديث بالغائبُ (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ) ، وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الحديث بالتكلم (فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ) أي انتقل من أسلوب الحديث بالغائب بضمير: هو، إلى أسلوب الحديث بالتكلم: نحن، وفائدة هذا الالتفات إيقاظ الأذهان للتفكر في منّة الله على عباده الذي يقدر أسباب رزقهم ويسوقها لهم، وللتفكر في مظهر من مظاهر قدرته التي يُحيي الأرض الميتة وهو الأمر الذي يشبه إحياء الموتى يوم القيامة، إذ جاء فيه تحدث الربّ الجليل عن نفسه بضمير المتكلم العظيم(سقنا- أحيينا)؛ ولكنه انتقل إلى التكلم ليحدث إيقاظًا عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة، فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينقل الإسناد إلى

١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (٨٨/٢). البلاغة العربية، الميداني (٥١٦/١).

ضمير ذي الجلالة سبحانه، الالتفات مهنا يشير إلى أن الله سبحانه يسوق السحاب بذاته العلية، ويقسمه رحمة ورزقا بيديه، ولا يدع ذلك لأحد من خلقه [1] وقوله - جل وعلا - في آية أخرى:(ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ) [سورة فصلت: ١١ – ١٢]. حيث أن الكلام في صدر الآية بأسلوب الحديث عن الغائب (فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ) أي: الله ثم عاد بأسلوب الحديث بالتكلم (زيّنا) وفائدة هذه الالتفات كما سبق في الآية السابقة الذكر، وقد ذكر اسمين من أسماءه الحسنى لملائمة دقة التقدير العظيم وأحكامه، ولأن السماء الدنيا وما فيها من كواكب من أظهر وأوضح الآيات التي تشير إلى القدرة الخالقة التي يحث القرآن على النظر إليها كثيرًا، فالالتفات إذن كأنه لفت إلى الموضع الذي تؤخذ منه العبرة، وتدنو به الحقيقة الدالة من القلوب المعتبرة[2].

٦- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.

يقول الله تعالى: (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥) [الفاتحة: ٢ – ٥]. النص في مطلع السورة جاء على وفق أسلوب الحديث عن الغائب: (له الحمد، وهو رب العالمين)، ثم

١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (٨٨/٢). البلاغة العربية، الميداني (٥١٦/١).
٢) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى (ص: ٢٥٦). الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة. من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس (ص: ١٥٧) مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة ١٩٧٨م. بتصرف.

انتقل إلى أسلوب الخطاب: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)؛ وفائدة هذا الالتفات التمن موضوع الثناء على الله عز وجل إلى موضوع التوجه له بالعبادة، فالثناء يحسنَّ فيه الإعلان العام وهذا يلائمه أسلوب الحديث عن الغائب، والعبادة والدعاء يحسن فيهما مواجهة المعبود المدعوّ بالخطاب؛ ولأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا[1].

****

١) البلاغة العربية، الميداني (٤٩٣/١). المثل السائر، ابن الأثير (١٣٧/٢). بتصرف. خصائص التراكيب، محمد أبو موسى (ص: ٢٥٨).

المطلب الثاني: التفات في الأعداد:

وزيادة على التفاتات الضمائر قام بعض البلاغيين بزيادة أقسام أخرى من أمثال هؤلاء ابن الأثير، والزركشي[1]، ومن هذه الأقسام نذكر ما قاله الزركشي: «ما يقرب إلى الالتفات من خطاب الواحدة الاثنين والجمع إلى خطاب واحد، إلى غير ذلك وهو ستة أقسام[2] وهي كالتالي:

١- الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين:

كقوله تعالى:(قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨) [يونس: ٧٨]. الالتفات في انتقاله من المفرد في قوله: (أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا)، إلى قوله: (وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ) بصيغة المثنى من الواحد إلى الاثنين[3].

٢- الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع:

قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ)[الطلاق: ١]. (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ) خطاب موجه للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو مفرد ثم انتقل إلى الجمع في قوله: (إِذَا طَلَّقۡتُمُ)».

١) بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تركي الأصل. أحد العلماء الأثبات الذين نجموا بمصر في القرن الثامن، وجهبذ من جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد، وهو أيضا علم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين. ولد بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ. من كتبه: البحر المحيط في أصول الفقه، البرهان في علوم القرآن وتوفى بمصر في رجب سنة ٧٩٤هـ. الأعلام للزركلي (٦٠/٦). بتصرف.

٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (٣/١). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣٣٤/٣). معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، جلال الدين السيوطي (٢٩١/١)، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. بتصرف.

٣- الانتقال من الاثنين إلى الواحد:

كقوله تعالى: (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾) [طه: ٤٩]. انتقل من أسلوب الحديث في «المثنى (فَمَن رَّبُّكُمَا) إلى المفرد (يَٰمُوسَىٰ)، ويقول أيضًا:(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾) [سورة طه: ١١٧]. خطاب لآدم وحواء ثم انتقل إلى خطاب آدم لوحده» [١].

٤- الانتقال من الاثنين إلى الجمع:

كقوله تعالى:(وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾) [سورة يونس: ٨٧]. وفيه انتقال آخر من الجمع إلى المقدر فإنه ثَنَّى ثم جمع ثم وحّد توسعا في الكلام وحكا التثنية أنّ موسى وهارون هما اللذان يقرران قواعد النّبوة ويحكمان في الشريعة فخصّهما بذلك ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة لأنّ الجميع مأمورون لها ثم قال لموسى عليه السلام لوحده: (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) لأنه الرسول الحقيقي الذي إليه البشارة والإنذار[٢].

٥- الانتقال من الجمع إلى الواحد:

ولقد تحدثنا في الآية السابقة عن هذا النوع من الانتقال في خطاب الله تعالى مع سيدنا موسى عليه السلام عندما قال له:(وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) ، ومنه قوله أيضًا: (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ) [سورة

١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣/٣٥٥). معترك الأقران، السيوطي (١/٢٩٢). بتصرف.
٢) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (٣/٢٩٤). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م. بتصرف.

طه: ١٢٣]، والانتقال هنا في قوله:(منّي هدى) بعد أن تكلم بالجمع في قوله(اهبطوا منها) فلم يقل: منّا مع أنّ للجمع أو للواحد المعظم نفسه وحكمته المناسبة للواقع، فالهدى لا يكون إلّا من الله مناسبة الخاص للخاص[١].

٦- الانتقال من الجمع إلى التثنية:

كقوله تعالى: (يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤) [سورة الرحمن: ٣٣ – ٣٤]. حيث انتقل من أسلوب الحديث بالجمع في قوله: (يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ) إلى أسلوب المثنى في قوله: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤)[٢].

****

١) معترك الأقران، السيوطي (٣/٣٥٥). الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٣/٢٩٤).
٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣/٣٥٥). معترك الأقران، السيوطي (١/٢٩١). بتصرف.

المطلب الثالث: تقسيمات بلاغية أخرى للالتفات:

وبالإضافة إلى هذه الأنواع والتقسيمات أضاف البلاغيون تقسيمات أخرى، نذكر منها ما جاء به ابن الأثير والزركشي والسيوطي وغيرهم سنوردها على النحو الآتي:

الانتقال من الماضي إلى الأمر:

قال تعالى: (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾) [سورة الحج: ٣٠].

١- انتقل من الماضي[1] في قوله:(أُحلت لكم الأنعام) بفعل الماضي ثم أمر باجتناب الأوثان وقول الزور أي بعد أن أعطاهم النعم أمرهم بالامتثال لأوامره سبحانه وتعالى[2].

الانتقال من المستقبل إلى الأمر:

وهو تعظيم حال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيم لأمره، فقد جاء في قوله تعالى: (قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) [سورة هود: ٥٣ – ٥٤]، فقال: (وَٱشْهَدُوٓا۟) بصيغة الأمر بعد أن تكلم بصيغة الماضي في قوله: (جِئْتَنَا)، وقد قال: (وَٱشْهَدُوٓا۟) ولم يقل أشهدكم ليكون حجة لهم ولأنّ إشهاد الله على

١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (٢٩١/١).
٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣٥٥/٣). بتصرف.

البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عَدَلَ به لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر[1].

الانتقال من الماضي إلى المستقبل:

نحو قوله تعالى: (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾) [سورة فاطر:٩]. الانتقال هنا من فعل الماضي: أرسل إلى أفعل المضارع: تثير للدلالة على المستقبل، وقوله أيضًا: (حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾) [سورة الحج: ٣١]. وقوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) [سورة الحج: ٢٥]. والحكمة في قوله: «كفروا» بصيغة الماضي ليفيد عليه على أنه قد مضى، أما يصدون فجاءت مستقبلًا للدلالة على التكثير وأنها غير منقطعة أي متواصلة في حين أن كفرهم انقطع.

الانتقال من المستقبل إلى الماضي:

قوله تعالى: (وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴿٨٧﴾) [سورة النمل: ٨٧]. ويقول أيضًا: (وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾) [سورة الكهف: ٤٧]. والفائدة في الفعل الماضي إذا أُخبر به في المستقبل الذي يوجد: من في الآية(يُنفَخُ) إلى(فزع)، وفي الآية (نُسَيِّرُ) إلى (وَحَشَرۡنَٰهُمۡ) وذلك لأنه أبلغ وأعظم موضعا لتنزيله منزلة

١) المثل السائر، ابن الأثير (١٤٩/٢). بتصرف.

الواقع، والفائدة في المستقبل إذا أخبر به عن الماضي لتبين هيئة الفعل لاستحضار صورته ليكون كأنه شاهد، وإنما عبر عنه في الأمر بالتوبيخ بالماضي بعد قوله:(ينفخ) للإشعار بتحقيق الوقوع وثبوته وأنه كائن لا محالة، وقوله:( ) ماضيا بعد قوله ( ) و(نّرى) وهما مستقبلان للدلالة على ن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهد تلك الأحوال كأنه يقول: وحشرناهم قبل ذلك، لأنّ الحشر هو المهم وذلك لأن أغلبية الناس تنكره[1].

ويُضاف نوع آخر من أنواع الالتفات وهو ما يقصد بالالتفات في مجال الأدوات أم التفات معجمي، وهو ما ذكره الدكتور «حسن طبل»، في كتابه: «أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية» وهو ما يسمى بالالتفات المعجمي وهو يمثل بين الألفاظ التي تتداخل دوائرها الدلالية بحيث تتلاقي في مساحة أو قدر مشترك من المعنى، ثم ينفرد كل منها ببعض الخصوصيات التعبيرية أو الطاقات الإيحائية التي لا يشركه فيها سواه، فطرفا العدول في هذا المجال وهما لفظان يشتركان فيما يطلق عليه علماء اللغة المعاصرون: الدلالة المركزية، أو المعجمية، أو الأساسية، ويستقل كل منهما عن الآخر فيما يسمى عندهم: الدلالة الهامشة، أو السياقية أو ظلال المعنى وألوانه، أما قيمة المغايرة بينهما فتمثل في ملائمة كل منهما بدلالته المنفردة للموقع الذي أوثر فيه من سياق الكلام، ومن المواطن القرآنية التي تتمثل فيها صورة العدول والالتفات في هذا المجال من ذلك قوله تعالى:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

١) المثل السائر، ابن الأثير (٢/١٥٠).

ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤) [العنكبوت: ١٤]. حيث جاء تمييز المستثنى بلفظ العام لا بلفظ السنة الواردة في تمييز المستثنى منه، وكل من اللفظين يدل على معنى الحول، ولقد ذكر غير واحد من المفسرين أن السر في ذلك هو تحاشي تكرار لفظة: السنة؛ لأنّ تكرار اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو نحو ذلك؛ والحق في العدول عن لفظة: السنة إلى لفظة العام أو إيثار أحدهما عن الأخر في غيرها من الآيات عما يرتد إلى خصوصية كل منها بالدلالة على معنى، المن حيث تختص السنة كما تقول المعاجم بالذي يكون فيه الجدب والشدة، ويختص العام بما فيه من الخصب والرجاء، في ضوء هذه التفرقة بين السنة والعام يرجع عندنا الرأي القائل بأن نكتة المخالفة بينهما في الآية هي الإيحاء بأن نوحا عليه السلام قد قاسى ما قاسى من قومه تلك الحقبة الطويلة التي استغرق فيها دعوته إياهم التي بلغت تسعمائة عاما وخمسين سنة، أما المدة المستثناة هي التي جاء في صدرها الغوث والفرج لإهلاكهم غرقا ونجاته ومن معه من المؤمنين، ففي العدول فيس ضوء هذا الرأي إبراز المدة الشاسعة لابتلاء نوح عليه السلام مع قومه ومدة رخائه بعد هلاكهم وهو بذلك يؤدي دوره في تسلية نبينا صلى الله عليه وسلم وتثبيت قلبه في مواجهة ما كان يلقاه من عنت الكفار والمشركين وهو بذلك يؤدي دوره في سياق تلك السور المكية التي تكرر فيها ذكر الفتنة والإيذاء لفتا إلى سنة الله سبحانه في التمييز بين صادق الإيمان وزائفه[1].

١) أسلوب الالتفات د. حسن طبل (ص: ١٥٩). الناشر: دار الفكر العربي - مصر، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

ومن ذلك العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام في قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ۝٣﴾ [سورة المائدة: ٣]. اللفظتان يتفقان معجميا في الدلالة على معنى واحد وهو غزالة النقص ولكنهما يفترقان بعد ذلك إذ يختص الإتمام كما ذكر بعض المفسرين بالدلالة على إزالة نقصان الأصل، والإكمال بالدلالة على إزالة نقصان العوارض بعد إتمام الأصل، ما نستطيع القول أن في العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام لفتا للمسلمين إلى ذكر فضل الله سبحانه في هذه النصر المظفر ما نالوه بعد أن كان مجرد أمنيات تجول في خواطرهم وتتطلع إلى تحققها نفوسهم[1].

الالتفات المعجمي: وهو ما تشابهت ألفاظه واختلفت معانيه.

****

١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل (ص: ١٦٠). بتصرف.

المطلب الرابع: جماليات الالتفات وأهدافه:

للالتفات أسرار عظيمة الشأن مليحة النكت، دقيقة المعنى، وهذا ما ذكره معظم البلاغيون، حيث يقول أحدهم: «إنه من أجّل علوم البلاغة، وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسُمي بذلك أخذا له من التفات الإنسان يمنا وشمالا، وقد لُقب بشجاعة العربية والسبب في تلقيبه بذلك هو أن الشجاعة هي الإقدام، والرجل إذا كان شجاعا فإنه يَردُ الموارد الصعبة ويقتحم الوُرُوط الصعبة «أي أنّ الالتفات ليس بالأمر السهل ولهذا جاء ذكره في القرآن بكثرة للإعجاز والتحدي[1].

والزمخشري في كتابه «الكشاف»، وفي تفسيره لسورة الفاتحة يتكلم عن سر بلاغة الالتفات فيقول:» ... الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب تطريه لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقفه بفوائد».

وذكر في موضع آخر قائلا: «إنما يُستعمل للتفنن في الكلام»[2]. وهنا يقصد الزمخشري أنّ الالتفات فن من أفانين الكلام يهدف إلى تطريه نشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه حتى لا يسأم السامع من التكلم على وتيرة واحدة.

وها هو حازم القرطاجّني يقول في بلاغة الالتفات»: ... وهم العرب يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم، أو ضمير مخاطب فيقول من

---

١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحي العلويّ اليمني (٧١/٢). بتصرف.

٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري (١٤/١)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ. بتصرف.

الخطاب إلى الغيبة وكذلك يتحدث عن المتكلم بضمير فتارة يجعله ياء على جهة الإخبار عن نفسه وتارة يجعله كافًا أو تاء فيجعل نفسه مخاطبًا، وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم، أو مخاطب لا يُستطاب، وإنما يحسن الانتقال مكن بعضهما إلى بعض[1].

وهذا القول هو ما أكد عليه الزمخشري في قوله في طرد السأم وجذب انتباه السامع.

وننتقل إلى السّكاكي الذي يتكلم عن الالتفات فيقول: «واعلم أن هذا النوع هو نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها يُنقل كلّ منها إلى الأخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا نُقل من أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطريه لنشاطه وأملاً باستدرار إصغائه[2].

ونجد الزركشي بقوله ووجهه حيث السامع، ويبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم. وزاد ملاحظة أخرى بقوله: «وأنه إعطاء فضل عناية وتخصيص بالمواجهة»، فهو يلفت النظر إلى ارتباط الالتفات بعوامل نفسية مشتركة بين المتكلم والمتلقي ينتج عن هزة شعورية نفسية من لدّن المتكلم ليضرب بها أوتار حساسة في نفس المتلقي[3].

ثم يضيف ابن الأثير فيقول: «هو خلاصة علم البيان التي حولها يُدندن

---

١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن ابن حازم القرطاجّني (ص: ٣٤٨)، تحقيق: محمد حبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي- بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م. بتصرف.

٢) مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي (ص: ١٩٩)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣/ ٣٣٠). بتصرف.

وعليها ينتسب البلاغة... والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنه لا تُحد بحد ولا تُضبط بضابط لكن يُشار إلى موضوع أخر منها ليقاس عليها غيرها»، ثم يزيد ابن الأثير فيقول: «فإننا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعملنا أن الغرض الموجب لاستعمال هذا الشرح من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى تتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه: «ثم يؤكد على أن هذا الفن من الفنون لا يجيده إلا البلغاء، فيقول: «فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها»، أي أنّه ليس بالأمر السهل أن تقوم بهذه التقليبات سواء تعلق الأمر بالضمائر أو الأفعال أو العدد أو المعجم[1].

ويضيف بدر الدين الملقب بابن «الناظم» فيقول: «والعرب يستكثرون منه لأنهم يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أُدخل في القلوب عند السامع وأحسن تطريه لنشاطه وإملاءً باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك... فيخالفوا فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنوا قريَّ الأرواح فلا يخالفوا فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد[2].

١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (٢/١٣٦).

٢) المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك ابن الناظم (ص: ٣٠)، تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف، الطبعة الأولى. سنة النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م. بتصرف.

ويقول حسن إسماعيل: «وإن كان له فوائد جليلة يقتضيها المقام إلا أنّه أيضًا يثير انتباه السامع ويجدد نشاطه للإصغاء إلى تلك الفوائد فيتقبلها في شوق المنتظر ولهفة المتطلع فتستقر في قلبه وتتمكن منه فضل التمكن[1].

كل هذه الأقوال تؤكد أن جمال الالتفات يكمن في تطريه نشاط السامع ودعوته إلى الإصغاء، إلا أنّ يضيفه عبد الله صولة في كتابه غير ذلك، فيقول: «إن هذا التغيير في نوع الضمائر مع بقاء الملتف عنه يتغير ليس لمجرد الافتنان في الكلام وليس هو لتطريه نشاط السامع وتجديد سمعه فحسب، وإنما هو كذلك وربما هو أساسًا لتوريط السامع والزج به في القضايا التي يتناولها الخطاب ولجعله طرفا معنيا بها»، ثم يضيف فيقول: «.. ونقول: إن ترك الانتقال إلى المخاطبة والاستمرار في الكلام بضمير الغائب مدعاة إلى أن ينغلق الكلام القرآني على نفسه، وإلى أن تنحصر وظيفته في مجرد الإخبار عن أوضاع ومواقف وأحداث مضت وولّى زمانها، ولكن الكلام القرآني حجاج ومن طبيعة الكلام الحجاجي أنّه كلام مواجهة». فهو يقصد أن الالتفات ليست فائدته تطريه نشاط السامع وتجديد للإصغاء فقط بل للزج به في القضايا التي يدور حولها الخطاب، وجعله عنصرا مشاركا في العملية الخطابية بين المُلقي والمُتلقي ويكون التفاعلي بين هذه العناصر التواصلية ثم يؤكد على أنه لو لم يكن القرآن فيه تأثير على المتلقي ودفاعًا له مشاركته في الخطاب لكان منغلقًا على نفسه، ولكن القرآن جاء للحجاج ومن طبيعة الحجاج أن

١) النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، الدكتور حسن إسماعيل عبد الرزاق (ص: ٣٢٤)، الناشر: دار الطباعة المحمدية، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م. بتصرف.

تكون فيه أكثر من عنصر للمشاركة في الخطاب[1].

فالالتفات لون من ألوان الصياغة يعين ذا الموهبة الصادقة على الإيحاء بكثير من اللطائف والأسرار ويلفت النفس الملتقية الواعية إلى كثير من المزايا، وكلما أمعنت على مواطنه من الكلام الرفيع بنت لك وجوه من الحسن تزيدك إحساسا بقدرته[2].

كل هذا كان جمالية الالتفات العامة التي تكون في مجملها السامع والإصغاء إلى ما يدور حوله الخطاب، وسوف نتكلم عن أغراضه الخاصة أو المكنون الجمالي الحاصل من وراء الالتفات والتي تكون في مقاصد عدة، وهي التي سنذكرها في ثنايا هذا البحث – إن شاء الله -.

****

١) بتصرف: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (ص: ٤٥٩)، الناشر: دار الفارابي- بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢) بتصرف: خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، (ص: ٢٤٤)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.

المبحث الرابع
دلالة أسلوب الالتفات عند
علماء البلاغة

إن الالتفات كان قديما ولا زال من الأساليب التعبيرية الإبداعيَّة في اللغة الأدبية، وقد استقرَّ مفهوم الالتفات عند البلاغيين على أنه هو «الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر أو أنه الانصراف عنه إلى آخر[1].

ويقوم على مقتضيات التخطي والانحراف عن الأنماط المعتادة، وهو خاصية تعبيرية ذات طاقات إيحائية يبنى على الانزياح عن النسق اللغوي المألوف، وذلك من خلال انتقال الكلام من صيغة إلى أخرى، كالانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو العكس.

والالتفات ظاهرة أسلوبية تعتمد على انتهاك النسق اللغوي المعروف وتجاوزه معتمداً على الانزياح من خلال المطابقة، ومن أنواعها: الانتقال من المخاطب إلى المتكلم، ومن الجمع إلى المفرد، ومن الماضي إلى الحاضر، وما يشبه ذلك»[2] ويعدّ التجريد وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة في كمالها فيه نحو «لي من فلان صديق حميم» جرد من الرجل الصديق آخر مثله متصف بصفة الصداقة»[3].

والتجريد يعتبر من أنواع الالتفات.

كما سمى السيوطي[4] الالتفات بخطاب التلْوين وعدّه من وجوه

١) فن الالتفات في مباحث البلاغيين، جليل رشيد فالح (ص ٦٦)، مجلة آداب المستنصرية، دار مطبعة بغداد، عدد ٩، ١٩٨٤م. بتصرف.

٢) البديع في نقد الشعر، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني الكلبي (ص: ٥٨). تحقيق: الدكتور أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة. بتصرف.

٣) التجريد: شكل من أشكال الالتفات وهو مخاطبة الشاعر لنفسه. الإتقان، السيوطي (٣٠٧/٣). بتصرف.

٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب له

مُخاطبات القرآن وهو باب من أبواب بلاغته[1].

ويعتبر الالتفات من أهم الأساليب العريقة في اللغة العربية، وهو أحد الألوان البيانية البلاغية والمسالك التعبيرية التي يكثر استخدامها في لغة القرآن الكريم، بل لعله أكثر هذه الألوان انتشارا، وأوسعها وجُودا وترددا «وقد توارد في مورثنا البلاغي مع طائفة من المصطلحات في الدلالة على الالتفات الأسلوبي، ومن بين هذه المصطلحات الصّرف: وهو الالتفات والانصراف، وقد سمّاه غيره بقوله: «وأما الصرف فانه يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ومن الواحد إلى الجماعة»[2].

وأما الصرف: فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب، ومن الواحد إلى الجماعة، كقوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ) [سورة يونس: 22].

و(العدول) عدل: العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور. عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلا وهو عادل من قوم عدول وعدل.

وعدله: كعدله. وإذا مال شيء - عدلته أي أقمته فاعتدل أي استقام،

أكثر من ٦٠٠ مصنف، ولد سنة ٨٤٩هـ. ونشأ في القاهرة يتيما، كان يلقب بابن الكتب، لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب! ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي بمصر سنة ٩١١هـ. من كتبه الإتقان في علوم القرآن والدر المنثور. الأعلام للزركلي (٣٠١/٣). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي (٧٦/١٠). تحقيق: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. النور السافر عن أخبار القرن العاشر، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (ص: ٥١). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

١) الإتقان في علوم القرآن (١١٤/٣). بتصرف.

٢) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب (ص: ١٢٢). بتصرف. تحقيق: د. حفني محمد شرف (أستاذ البلاغة، والنقد الأدبي المساعد - كلية دار العلوم، جامعة القاهرة)، الناشر: مكتبة الشباب (القاهرة) - مطبعة الرسالة عام النشر: ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

وعدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا إذا ساويته به، وعدل عن الشيء يعدل عدلا وعدولا: حاد، وعن الطريق: جار، وعدل إليه عدولا: رجع»[1].

والعدل: أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلت فلانا عن طريقه وعدلت الدابة. وهو من قولهم: عدل عنه يعدل عدولا إذا مال كأنه يميل من الواحد إلى الآخر.

والعدل: خلاف الجور، العدل بالفتح ما عادل الشيء من غير جنسه»[2].

والالتفات: هو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس»[3]. «العُدُولُ من أسلوبٍ في الكلامِ إلى أسلوبٍ آخرَ مُخالِفٍ للأوَّلِ[4].

و(الانصراف) الانصراف من معنى يكون فيه إلى معنى آخر. والانصراف وقال فيه ابن منقذ[5] «هو أن يرجع من الخبر إلى الخطاب من الخطاب إلى الخبر».

وسماه قوم الاعتراض وهو أن تذكر في البيت جملة معترضة، لا تكون زائدة، بل يكون فيها فائدة، مثل قول الشاعر:

---

١) لسان العرب، ابن منظور (٤٣٠/١١). جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ. بتصرف.

٢) لسان العرب، ابن منظور (٤٣٥/١١). الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، (١٧٦١/٥). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ص: ٣٥)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. بتصرف.

٤) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (٧١/٢). المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٥) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، أمير، من أكابر بني منقذ، ولد في شيزر سنة ٤٨٨هـ. كان من العلماء الشجعان. له تصانيف في الأدب والتاريخ، منها (لباب الآداب) و (البديع في نقد الشعر). سكن دمشق، وانتقل إلى مصر، قاد جيوش ضد الصليبيين في فلسطين، عاصر صلاح الدين اليوبي مات بدمشق سنة ٥٨٤هـ. الأعلام للزركلي (٢٩١/١). بتصرف.

إنَّ الثمـانينَ، وبلغتهـا ... قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمانْ[1].
وبدلتني بالنشاطِ انحنا ... وكنتُ كالصعدة تحتَ السنانْ»[2].

فقوله: وبلغتها حشو مستغنى عنه في نظم الكلام ولكنه حسن في مكانه وأوقع في المعنى المقصود»[3].

****

١) البديع في نقد الشعر، ابن منقذ (ص: ١٣٠).
٢) الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ص: ٤٩)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ. وقد نسب البيتان لجرير. أما أبو على أحمد بن محمد الأصفهاني، في الأزمنة والأمكنة (ص: ٤٥٧). الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ. وأبو حيان في البصائر والذخائر (٨٥/٦). تحقيق: د. وداد القاضي، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. فنسباهما لعوف بن محلّم الشيباني من قصيدته في عبد الله بن طاهر.
٣) فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي (ص: ٢٧٨). تحقيق: د. وداد القاضي، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. بتصرف.

المبحث الخامس

مفهوم الضمائر وأقسامه

www.alukah.net

شبكة الألوكة

المطلب الأول: مفهوم الضمائر في اللغة:

كلمة الضمير في اللغة تدور على ثلاثة أحرف أصلية. هي: الضاد والميم والراء. قال الخليل بن أحمد[1]: «الضُّمْرُ: العين. والضمر من الهزال (ولحوق البطن). والفعل: ضمر يضمر ضمورا فهو ضامر. وقضيب ضامر: انضمر وذهب ماؤه. والمضمار: موضع تضمر فيه الخيل، وتضميرها أن تعلف قوتا بعد السمن. والضمير: الشيء الذي تضمره في ضمير قلبك[2].

وقال ابن فارس: «الضاد والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على دقة في الشيء، والآخر يدل على غيبة وتستر.

فالأول قولهم: ضمر الفرس وغيره ضمورا، وذلك من خفة اللحم، وقد يكون من الهزال. ويقال للموضع الذي تضمر فيه الخيل: المضمار. ورجل ضمر: خفيف الجسم. ثم ذكر من معنى الثاني: أضمرت في ضميري شيئاً؛ إذ يغيبه في قلبه» [3]

١) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي، أخذ علم النحو عن أبي عمرو بن العلاء، ولد سنة ١٠٠هـ. كان الخليل بن أحمد أعلم الناس بالنحو والغريب، وأكثرهم دقائق في ذلك، وأول من اخترع العروض وفتقه، وجعله ميزاناً للشعر، شيخ سيبويه. من أهم كتبه: كتاب الع[illegible]و[illegible] يتمه، وله كتاب [illegible] العروض، وانتقل إلى البصرة. ومات بها سنة ١٧٥هـ. عن ٧٤ سنة. طبقات الشعراء، عبد الله ابن المعتز (ص:٩٥)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: الثالثة، وتاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن التنوخي (ص:١٢٣)، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، وسير أعلام النبلاء الذهبي (٤٢٩/٧)، تحقيق: بإشراف شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي (٣٧٦/١)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م.

٢) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (٤١/٧)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال سنة ٢٠٠٣م. بتصرف. مادة ضمر: ومعني لحوق البطن: لصوقه وتقاربه مع الظهر؛ لقلة الأكل أو كثرة الترويض للحيوان حتى يتمكن من السبق.

٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس القزويني الرازي مادة ضمر (١٧١/٣)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال الراغب الأصفهاني[1]: الضمير هو ما ينطوي عليه القلب ويدق عليه الوقوف وقد تسمى القوة الحافظة لذلك ضميراً[2].

وقال أبن هشام[3]: «وإنما سُمّيَ مضمرا من قولهم أضمرت الشيء، إذا سترته وأخفيته، ومنه قولهم: أضمرت الشيء في النفس أومن الضمور وهو الهزال؛ لأنه في الغالب قليل الحروف، ثم تلك الحروف الموضوعة له مهموسة وهي: التاء، والكاف، والهاء، وغيرها، والهمس: هو الصوت الخفي وهو عبارة عما دل على متكلم نحو أنا ونحن أو مخاطب نحو أنت وأنتما أو غائب نحو هو وهما»[4].

في ضوء ما سبق يتبين أن الضمير في اللغة يدور معناه أمرين هما: الهزال والخفاء وهذان هما المعنيّان وهما يتناسبان مع أكثر الضمائر، ولكنهما لا يتناسبان مع ضمائر كثرت حروفها مثل: إياك وإياكم وإياكن وغيرها.

****

١) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. من كتبه: و الذريعة إلى مكارم الشريعة, و جامع التفاسير, و المفردات في غريب القرآن. توفي سنة ٥٠٢هـ. معجم المؤلفين, عمر رضا كحالة (٢٩/١٤)., الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت. الأعلام للزركلي (٢٥٥/٢).

٢) المفردات في غريب القرآن, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى : مادة ضمر, تحقيق: صفوان عدنان الداودي, الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ

٣) جمال الدين عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن هشام, من أئمة العربية. ولد بمصر سنة ٧٠٨ ولزم الشيخ شهاب الدين عبد اللطيف ابن المرحل وتلا على ابن السراج, وأتقن العربية ففاق الأقران, من كتبه: تعليق على ألفية ابن مالك ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب أشتهر في حياته. توفي بمصر سنة ٧٦١هـ. بتصرف: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة, ابن حجر العسقلاني (٩٣/٣), تحقيق: محمد ضان, الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد - الهند الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م. الأعلام للزركلي (١٤٨/٤).

٤) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب, أبو محمد، جمال الدين عبد الله بن يوسف ابن هشام (ص: ١٧٥), تحقيق: عبد الغني الدقر, الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا. بتصرف.

المطلب الثاني: الضمائر في الاصطلاح:

المذهب الأول في تعريف الضمير:

تعريف الضمير بالحد الذين رأوا تعريف الضمير بالحد دون العد اختلفوا في ألفاظ تعريفه، والسبب في ذلك: اختلافهم في تسمية الضمير نفسه فسيبويه-رحمه الله -[1] مثلا يجعل: (أنا .. وأنت.. وهو... وفروعهن علامات للمضمر ويتحدث عنها على أنها باب بهذا العنوان»[2].

أما ابن السراج[3] فقد وضع باب الكنايات على أنها من علامات المضمر وأورد ما يشبه التعريف بقوله: «هو اسم كنّي به عن اسم»[4].

كما يقول ابن يعيش[5] «ولا فرق بين الضمير والمكني عند الكوفيين فهما من قبيل الأسماء المترادفة فمعناهما واحد وإن اختلفا من جهة اللفظ

---

١) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد سنة ١٤٨هـ. وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنف كتابه المسمى « كتاب سيبويه» في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي. وعاد إلى الأهواز فتوفي بها، وقيل: وفاته ١٨٠هـ وقبره بشيراز. الأعلام للزركلي (٨١/٥). إنباه الرواة على أنباه النحاة, القفطي (٣٤٨/٢). بتصرف.

٢) الكتاب عمرو بن عثمان سيبويه (٥٣/٢), تحقيق: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. بتصرف.

٣) هو أبو بكر محمد بن السري بن سهل البغدادي المعروف بابن السراج: أحد أئمة الأدب والعربية. من أهل بغداد. ويقال: ما زال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله. مات شابا. من كتبه: الأصول في النحو، و شرح كتاب سيبويه و الشعر والشعراء. توفي سنة ٣١٦هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (٦/ ١٣٦). معجم المؤلفين, عمر رضا كحالة (١٩/١٠), الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٤) الأصول في النحو, أبو بكر محمد بن السري النحوي المعروف بابن السراج (١٩/٢), , تحقيق عبد الحسين الفتلي الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت. بتصرف.

٥) هو أبو البقاء موفق الدين محمد بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا الأسدي: من كبار العلماء بالعربية. موصلي الأصل. ولد بحلب سنة ٥٥٣ رحل إلى بغداد ودمشق، وتصدر للإقراء بحلب إلى أن توفي بها سنة ٦٤٣هـ كان ظريفا محاضرا، مع سكينة ووقار. من كتبه « شرح المفصل. الأعلام للزركلي (٢٠٦/٨). بتصرف.

وأما البصريون فيقولون: المضمرات نوع من المكنيات فكل ضمير مكنيّ وليس كل مكنيّ مضمرا»[1].

وذهب ابن هشام والصبان[2] إلى أن تسمية الضمير والمضمر بهذا المصطلح مستعملة عند نحاة البصرة، وأما الكناية والمكني فهي من التسمية المستخدمة عند نحاة الكوفة المضمر ويسمى الضمير أيضا ويسميه الكوفيون الكناية والمكنى وانما بدأت به لأنه أعرف الأنواع الستة على الصحيح، وهو عبارة عما دل على متكلم نحو أنا ونحن أو مخاطب نحو أنت وأنتما أو غائب نحو هو وهما»[3].

وعند ابن مالك[4]: الضمير هو اللفظ الموضوع لتعيين مسماه بتكلمه أو خطابه أو غيبته. وقريب من هذا التعريف كلام جمال الدين

---

١) شرح المفصل, موفق الدين محمد بن علي ابن يعيش (٤٨/٣), قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب, الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. بتصرف.

٢) أبو العرفان: محمد بن علي الصبان، عالم بالعربية والأدب. مصري. مولده ووفاته بالقاهرة. له (الكافية الشافية في علمي العروض والقافية منظومة، و حاشية على شرح الأشموني على الألفية في النحو، و أرجوزة في العروض مع شرحها، عالم، مشارك في اللغة والنحو والبلاغة والعروض والمنطق وغير ذلك. ولد وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٠٦هـ بتصرف: الأعلام للزركلي (٢٩٧/٦). معجم المؤلفين, رضا كحالة (١٧/١١). بتصرف.

٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك أبو الحسن علي بن محمد بن عيسى الأُشْمُوني (٦٨/١), الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م. شرح شذور الذهب لابن هشام (ص: ١٧٤).

٤) أبو عبد الله جمال الدين: محمد بن عبد الله الطائي الجياني، أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان بالأندلس, سنة ٦٠٠هـ. وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة ٦٧٢هـ أشهر كتبه: الألفية في النحو، وله الكافية الشافية أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت، و شرحها. و لامية الأفعال. الأعلام للزركلي (٢٣٣/٦). بتصرف.

الفاكهي[1][2].

ومن تعريفات النحويين للضمير قولهم: أنه اللفظ المحتاج في تفسيره إلى لفظ منفصل عنه إن كان غائبا، أو قرينة إن كان تكلم أو خطاب[3].

****

١) جمال الدين: عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن علي الفاكهي المكي، عالم بالعربية، من فقهاء الشافعية. مولده بمكة سنة ٨٩٩هـ. أقام بمصر مدة. من كتبه « الفواكه الجنية على متممة الأجرومية , و مجيب الندا إلى شرح قطر الندى, واستنبط حدودا للنحو جمعها في كراسة ثم شرحها، وسماها « الحدود النحوية توفي بمكة سنة ٩٧٢هـ الأعلام للزركلي (٦٩/٤). بتصرف. معجم المؤلفين, كحالة (٢٨/٦).

٢) شرح كتاب الحدود في النحو, عبد الله بن أحمد الفاكهي النحوي (ص: ٨٩٢) , تحقيق: د. المتولي رمضان أحمد الدميري، المدرس في كلية اللغة العربية بالمنصورة - جامعة الأزهر والأستاذ المساعد في كلية التربية بالمدينة المنورة جامعة الملك عبد العزيز, الناشر: مكتبة وهبة – القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. بتصرف.

٣) شرح تسهيل الفوائد, أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك (٢١/١), تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون, الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع, الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

الفصل الثاني
الالتفات في سورة المؤمنون

المطلب الأول: في السورة وآياتها ومكيتها وترتيبها:

سميت سورة المؤمنون بهذا الاسم لافتتاحها بقول الله تعالى: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١) ثم ذكر أوصاف المؤمنين وجزاءهم العظيم في الآخرة وهو ميراثهم يوم القيامة الفردوس من الجنة[1].

بل إن من تتبع هذه السورة وجد عنايتها بأصواف المؤمنين والاستطراد في ذلك ببيان أوصافهم وبيان درجاتهم وزف البشريات لهم بما أعده لهم من النعيم الدائم، والهناء المقيم، كما أن فيها بيان قصص السابقين وبيان مصير المؤمنين منهم، وفيها بيان ما آل إليه حال المؤمنين من النجاة في الدنيا والفوز في الآخرة، ولعل ذلك من حكم الله في أن تسمى هذه السورة الكريمة بالمؤمنين .

أما عن مكية هذه السورة المباركة فهي مكية كلها في قول جمهور المفسرين[2].

وقد حكى قوم الإجماع على مكيتها. وممن حكى الإجماع ابن الجوزي، والقرطبي، الألوسي، وابن قتيبة، والنحاس، وجماعات من أهل التأويل[3].

١) التفسير المنير للزحيلي (٥/١٨). زاد المسير في علم التفسير, جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٢٥٤/٣), تحقيق: عبد الرزاق المهدي, الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ بتصرف.

٢) الجامع لأحكام القرآن, القرطبي (١٠٢/١٢). البحر المديد, ابن عجيبة (٥٦١/٣). مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور, البقاعي (٣٠٢/٢).

٣) تفسير البيضاوي (٨٢/٤). غريب القرآن, أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ص: ٢٥٣), تحقيق: أحمد صقر, الناشر: دار الكتب العلمية (لعلها مصورة عن الطبعة المصرية), سنة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. بتصرف. معاني القرآن, أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد النحاس, (٤٣٩/٤). تحقيق: محمد علي الصابوني, الناشر: جامعة أم القرى - مكة المرمة, الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ. الناسخ والمنسوخ, أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري, (ص: ١٢٩). تحقيق: زهير الشاويش , محمد كنعان, الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت, الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ روح المعاني الألوسي (٢٠٥/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولعل هذا الإجماع يراد به قول الأغلب من أهل التأويل، لا الإجماع الأصولي، لتعسره في هذا المقام وصعوبة القول به - والله أعلم -.

حيث قالوا: سورة المؤمنون مكية في قول الجميع.

وقيل: إنها مكية إلا أربع عشرة آية من قوله تعالى حتى إذا أخذنا إلى قوله تعالى﴿مُبْلِسُونَ﴾فنزلت بالمدينة.

ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به، ولا مختومة بما ختمت به من الجمل، ولا مثلها في عدد الآي[1].

أما آياتها فمائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثماني عشرة عند الكوفيين. وكلماتها ألف وثمانمائة، وحروفها خمسة آلاف وست مائة وثمانون.

وقيل: آياتها: مئة وثماني عشرة آية، وحروفها: أربعة آلاف وثماني مئة وحرفان، وكلمها: ألف وثماني مئة وأربعون كلمة[2].

وقيل عدد كلماتها: ألف ومائتان وأربعون كلمة. وعدد حروفها: أربعة آلاف وثمانمائة حرف[3].

أما سورة المؤمنون من حيث ترتيب المصحف فقد وقعت بين سورتي الحج سابقتها وسورة النور لا حقتها. ومن حيث ترتيب النزول فقد نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة كما حرر ذلك عدد من علماء التفسير[4].

****

١) روح المعاني الألوسي (٢٠٥/٩). بيان المعاني, عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (٣٣٩/٤). الناشر: مطبعة الترقي – دمشق, الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م. بتصرف.

٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن, أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (٣٧/٧), تحقيق: عدد من الباحثين, الناشر: دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية, الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

). فتح الرحمن في تفسير القرآن, مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (٤٥٥/٤). اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب, الناشر: دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلامِيّة – إدارة الشؤون الإسلامية, الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣) التفسير القرآني للقرآن, عبد الكريم الخطيب (١١١٠/٩). بتصرف.

٤) التسهيل لعلوم التنزيل, ابن جزي الكلبي (٤٨/٢). التفسير الحديث, دروزة (١٦/١). بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثاني: مناسبة السورة الكريمة وفضله:

بعض الأحاديث الواردة في فضائل سورة المؤمنون.

عن عبد الله بن السائب قال: «صلى لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى جاء ذكر موسى، وهارون أو ذكر عيسى - محمد بن عباد يشك - أو اختلفوا عليه أخذت النبي صلى الله عليه وسلم سعلة فركع وعبد الله بن السائب، حاضر»[1].

وعن أبي عمران، حدثنا يزيد بن بابنوس، قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ، قالت: «كان خلق رسول الله القرآن»، فقرأت: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) [المؤمنون: 1] حتى انتهت (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ)[سورة المؤمنون: ٩]. قالت: «هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

وعن عبد الرحمن بن عبد القاري: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان

---

١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -, «صحيح مسلم», مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (٣٣٦/١), تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. صحيح ابن خزيمة, أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (٢٧٥/١), تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي, الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت. السنن الكبرى, أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليّ البيهقي (٨٧/٢), تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي, الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور: عبد السند حسن يمامة), الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢) السنن الكبرى, أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (١٩٣/١٠), حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي, أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط, قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت, الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. مسند الإمام أحمد, أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٦٥/١), تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي, الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

إذا نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: « اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهِنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا «، ثم قال: « لقد أنزلت علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ علينا: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) حتى ختم العشر آيات[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خلق الله جنة عدن، وغرس أشجارها بيده فقال لها: تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[2].

روى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «لقد أُنزلت علينا عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة، ثم قرأ: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١) إلى عشر آيات[3].

وقد جاء الافتتاح البديع لهذه السورة المباركة بجوامع الكلم، حيث أن الفلاح غاية كل ساعٍ إلى مرضات الله، ومُؤمّلٌ أعمالا تكون سببا في دخوله الجنة، وهذه هي غاية كل عاقل، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون

---

١) مسند الإمام أحمد (٣٥١/١). سنن الترمذي «الجامع الكبير» أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي (١٧٩/٥)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر, الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م. السنن الكبرى للنسائي (١٧٠/٢).

٢) المستدرك على الصحيحين أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع (٤٢٦/٢), تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا, الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م. السنن الكبرى للبيهقي (٨٧/٢). المعجم الكبير, أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي المعروف بالطبراني (١١/ ١٨٤), تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي, دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة, الطبعة: الثانية, و(دار الصميعي – الرياض, الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٣) أخرجه الترمذي, (٣١٧٣). والنسائي في السنن الكبرى, (١٤٣٩). وأحمد في المسند (٣٤/١).

ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه مما يُقرب من الجنة[1].

والسورة تدور الإيمان بالله وعقيدة المؤمنين من أولها إلى آخرها فهي إذ تصف المؤمنين، تذكر أسس الإيمان في الإنسان والكون، ثم تتعرض لرسالات بعض الأنبياء وكلها تدعو للإيمان، ثم تعود إلى المؤمنين وخصالهم وإلى الكافرين وأعمالهم مع تعرض لبعض صفات الله ونراها تختتم الكلام بتوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم بذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة للعبرة والعظة[2].

****

١) فتح القدير محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (٥٦٠/٣)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ بتصرف.
٢) التفسير الواضح (٦١١/٢). بتصرف.

المطلب الثالث: علاقة سورة المؤمنون بسورة الحج قبلها:

لا يخفى ما يوجد بين السورتين من مناسبة ظاهرة حيث أن سورة الحج قد اختتمت بذكر الفلاح وما يتعلق به فمناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها: لعلكم تفلحون على سبيل الرجاء، وحققه هنا بشرطه في الجملة، ثم لما ذكر وراثة المتصف بتلك الأوصاف للفردوس، وذلك يتضمن المعاد، ذكر النشأة الأولى دلالة على صحة المعاد، ثم لما ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكره بنعمه، فجاء الحديث في سورة المؤمنون عن الخلق الذي خلقه الله لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق، وأنزلنا، فأنشأنا.. كل هذه الآيات، ولما كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنان، جاءت الآيات في سورة المؤمنين تبين أن أصنافا من الكفرة قابلوها بالكفران، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكر هذه النعم[1].

وثم مناسبة أخرى وهو أن سورة الحج تمثل الدلالة على ركن هو أتم أركن الإسلام وأشده وأثقله تكلفة ومشقة ؛ فناسب أن يليها ذكر ما يتعلق بالإيمان لتكون سلسلة متصلة في بناء قواعد الدين ودعائم الملة ، وأسس الشريعة.

لما قال الحق - تبارك وتعالى - في الآية من سورة الحج {لعلكم تفلحون. .} [الحج: 77] ولعل تفيد الرجاء، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) [المؤمنون: 1] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد، لذلك جاء بأداة التحقيق {قَدۡ } التي تفيد تحقق وقوع

١) البحر المديد، ابن عجيبة (٥٦١/٣).

الفعل، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .
وقوله تعالى هناك {تفلحون} [الحج: 77] وهنا {أفلح} [سورة المؤمنون: 1].

وبالجملة فإن في سورة المؤمنون تفصيل لما أجملته سورة الحج، فقد ذكر هناك إجمالا الأمر بالركوع والسجود والعبادة، وهنا جاء التعليم بما ينبغي للراكع والساجد من التزامه من الخشوع وغيره مما هو لابد منه في الصلاة، وكأنه لما أمر المؤمنين وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله كان مظنة لسؤاله عن تفضيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فكأنه قيل له المفلح من التزم كذا وكذا وذكر سبعة أنواع من العبادة وفعل الخير الذي يكمل به فلاحه، فقيل له هي أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة. ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المآثم جملة - قال جل وعلا - في سورة أخرى عن الصلاة وأهميتها وفضلها: (ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥) [العنكبوت: ٤٥].

لذلك اختتمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات بذكر التنبيه على الخشوع فيها أولا، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا فقال تعالى: (وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢) [المؤمنون: ١٢]. إلى قوله: (ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ

ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤)[المؤمنون: ١٤][1].

ووجه هذا الاتصال بين السورتين بصلة ظاهرة لا تتطلب عناء. وبهذا نجد أنه تلتقيان السورتان بدء هذه السورة مع خاتمة سورة الحج قبلها.. أن سورة الحج ختمت بهذا الخطاب العام للمؤمنين، الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وقد تضمن هذا الخطاب دعوة إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.. ثم ختم بقوله تعالى: (وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ) [سورة الحج: ٧٨]. وبدء سورة: «المؤمنون» بقوله تعالى:(قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ) [سورة المؤمنون: ١ – ٣]. إلى آخر الآيات- هو استقبال كريم لهؤلاء المؤمنين الذين دعوا إلى الله، واستجابوا لدعوته، وآمنوا به.. فهؤلاء المؤمنون، قد أفلحوا، وفازوا برضوان الله.. وكان هذا الخبر من معجل البشريات لهم في هذه الدنيا[2].

ويزيد السيوطي بيانا في وجه اتصال سورة المؤمنون بسورة الحج بقوله: أنه لما ختمها بقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧) وكان ذلك مجملًا، فصَّله في فاتحة هذه السورة، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢) [سورة المؤمنون: ١ –

١) البرهان في تناسب سور القرآن (ويسمى: البرهان في ترتيب سور القرآن)، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (٢٥٨)، تحقيق: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب، عام النشر: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. بتصرف. تفسير الشعراوي (خواطر الشيخ الشعراوي) محمد متولي الشعراوي (٩٩٥٩/١٦)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، نشر عام ١٩٩٧م).

٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (١١١٠/٩). تفسير الألوسي (٢٠٥/٩).

٢]. ولما ذكر في أول الحج قوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥) [سورة الحج: ٥]. زاده هنا بيانًا [وإطنابًا] في قوله:(وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣) [سورة المؤمنون: ١٢ – ١٣]. فكل جملة أُوجِزَت هناك في القصة أطنب فيها هنا وجملة القول أن وجه اتصال السورة بما قبلها ثلاثة وجوه:

أولها: ما ذكرته السورة السابقة من الإجمال في التعلل بالفلاح جاءت سورة المؤمنون وفصلته.

ثانيها: ما أجملته السورة السابقة (سورة الحج) في عدد من القضايا كالخلق وغيره فصلته هذه السورة.

ثالثها: الترقي في مقامات الدين بين الإسلام والإيمان في السورتين»[1].

****

١) أسرار ترتيب القرآن, للسيوطي (١١١). الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع, سنة النشر ٢٠٠٢م.

المطلب الرابع: ما تحدثت عنه السورة إجمالا:

- جاء في السورة التنويه بصفات المؤمنين الصادقين، ومصيرهم السعيد المرغوب فيه لدى لك من له عقل. كما جاء فيها التوكيد على البعث، وتذكير بقدرة الله في خلق الإنسان والأكوان وما فيها من منافع تستوجب الشكر لله وحده والإخلاص له في كل الأعمال والعبادات.

«وسلسلة قصص بعض الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم في صدد التمثيل والإنذار للكفار وتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وتطمينهم. وحملةً على الكفار والمشركين لاغترارهم بما يتمتعون به في الدنيا، وتبكيتا لهم على وقوفهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - موقف العناد والاتهام مع معرفتهم له ومع ما في مهمته من الخير المحض لهم المجرد عن كل غرض. وحكاية لبعض أقوالهم في إنكار البعث وردود قوية عليهم من مشاهد قدرة الله وملكوته واعترافهم بذلك. وتصوير مصائر المؤمنين والكفار الأخروية بما فيه التطمين والبشرى للأولين والرعب والهول للآخرين، وفصول السورة مترابطة وآياتها متوازنة. وهذا يبرر القول أنها نزلت متتابعة[1].

والناظر في سورة «المؤمنون» .. يجد أن اسمها يدل عليها وعلى ما تحتويه. ومن ثم يحدد موضوعها.. فهي تبدأ بصفة المؤمنين، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله جميعا - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه

١) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة (٥/ ٣٠٠). بتصرف.

السلام- إلى محمد خاتم الرسل والنبيين - صلى الله عليه وسلم - وشبهات المكذبين، وأراجيف المبطلين هذه الحقيقة الواضحة واعتراضاتهم عليها، ووقوفهم في وجهها لا يفتر منهم، حتى يستنصر الرسل بربهم، فيهلك المكذبين، وينجي المؤمنين..

وأخذت السورة الكريمة في بيان صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح.. كما تحدثت عن بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعا في عرض أطوار الجنين، مجملا في عرض المراحل الأخرى.. ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة.. وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية: في خلق السماء، وفي إنزال الماء، وفي إنبات الزرع والثمار. ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان والفلك التي يحمل عليها وعلى الحيوان.

وهذه كما أنها دلائل الإيمان وعلاماته ونجومه فهي دلائل اللطف والعناية والربوبية، ولولاها لما قامت لحيٍّ من الخلق حياة، ومع هذا فهي من دلائل الربوبية والقيومية التي تفضي إلى وجوب الهرع والفزع إلى هذا الرب اللطيف وحده دون غيره.

ثم تنتقل السورة الكريمة من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان. حقيقته الواحدة التي توافق عليها الرسل جميعا دون استثناء. قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٢٣]. قالها نوح - عليه السلام - وقالها كل من جاء بعده من الرسل، حتى انتهت إلى محمد - صلى الله عليه وسلم- وكان

اعتراض المكذبين دائما: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) [سورة المؤمنون: ٢٤]. وكان اعتراضهم كذلك. (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ) [سورة المؤمنون: ٣٥]. وكانت العاقبة دائما أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره، وأن يستجيب الله لرسله، فيهلك المكذبين.. وينتهي هذه التتابع من الآيات بنداء للرسل جميعا. قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [سورة المؤمنون: ٥١].

ثم تنتقل السورة للتحدث عن تفرق الناس- بعد الرسل- وتنازعهم تلك الحقيقة الواحدة التي جاءوا بها. قال تعالى: (فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [المؤمنون: ٥٣]. كما تحكي عن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة، واغترارهم بما هم فيه من متاع، بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم، يعبدونه ولا يشركون به، وهم مع ذلك دائمي الخوف والحذر.. وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون فيأخذهم التوبيخ والتأنيب. (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾) [سورة المؤمنون: ٦٦ – ٦٧]. ثم يستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين، وهم يعرفونه ولا ينكرونه وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا.

ويأتي السياق القرآني ليتركهم وشركهم وزعمهم هذا الكاذب المخالف للفطرة، ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، وأن يستعيذ بالله من الشياطين، فلا

يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون .

وهكذا فالسورة تدور الإيمان والمؤمنين من أولها إلى آخرها فهي إذ تصف المؤمنين، تذكر أسس الإيمان في الإنسان والكون، ثم تتعرض لرسالات بعض الأنبياء وكلها تدعو للإيمان، ثم تعود إلى المؤمنين وخصالهم وإلى الكافرين وأعمالهم مع تعرض لبعض صفات الله ونراها تختتم الكلام بتوجيهات للنبي- صلى الله عليه وسلم -، ثم بذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة للعبرة والعظة.

والناظر في هذه السورة نظرة أجمالية يجد أنها تنحو منحى عجيبا في إيصال فكرة اختصاص المؤمنين بالفلاح واسمها واضح الدلالة على ذلك، ففي نحو عجيب تبتدئ بالكلام عن صفات المؤمنين في سلسلة متصلة بما اختتمت به سورة الحج ، ثم تبين أن من اتصف بهذه الصفات هو الناجي وحده، ثم تنحو لبيان أصل خلق الإنسان، ثم بيان ما هيأه الله لبقاء الإنسان مما يليق بربوبية الله له، ثم تنتقل السورة لبيان أطوار من الأمم السابقة حق على مؤمنهم النجاة، وحق على خاسرهم البوار والدمار، وذلك ليؤصل لفكرة أن المؤمن هو الناجي وحده، ثم تنتقل السورة في حركة عجيبة إلى بيان إمهال الله لا إهماله لطوائف من الأمم ولو أنه شاء لاستأصل شافتهم، وأخذهم بذنوبهم، ثم تنتقل السورة إلى حالة من التقريع والتوبيخ لهؤلاء الكفار والفجار في تجلية مظاهر ربوبية الله بهم، ثم تنتقل إلى تجسيد صورة الموت وحال أهل الشقاء عنده بصورة مخيفة مفزعة وفيها يود الذين كفروا

لو أن لهم ما في الأرض جميعا ليفتدوا أنفسهم من هذا المشهد ثم تختم السورة بذكر العد والحساب والإحصاء على النفس خوف أن تتصرم دون أن تحرز نفسها من العطب والهلكة هذا ما تقصه السورة علينا إجمالا وفي تفاصيلها وأثنائها[1].

- من أهداف السورة العامة مقارنة صفات المؤمنين بمصير الكافرين. فسورة المؤمنون من السور المكية إذ هي تعرض من اسمها صفات المؤمنين بربهم خالقهم كما أنها تشرح مصير من لا يسير على هذه الصفات الطيبة التي اختص الله بها بعض عباده. والمطلوب منا أن نتوقف عند هذه الصفات ونحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا الله تعالى ونرى أننا يا تُرى من أي نوع؟ من المؤمنين بالله فبها ونعمت ونحتاج لشكر ربنا بالعمل بما يأمرنا وننتهي عم نهانا عنه. فهذه بعض الصفات المذكورة في الآيات يجب أن نتحلى بها. وكم من الصفات ما زلنا نحتاج لأن نكتسبها وتكون صفات المؤمنين هذه متحققة فينا جميعا.

****

١) التفسير الواضح (٦١١/٢). بتصرف.

المبحث الثاني
الالتفات في الضمائر في
سورة المؤمنون

المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾) [سورة المؤمنون: ١٤- 16].

المعنى الإجمالي للآية:

واعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق، أعقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا: منها الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة، ثم أعقبها بذكر الموت ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة والجواب: من وجهين: الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة. والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة[1].

ثم إنكم بعد هذه الحياة الدنيا لميتون، يعني: أنكم تموتون عند انقضاء آجالكم. ومن ثم ستبعثون يوم القيامة، وتحيون بعد الموت. فذكر الله للناس بداية خلقهم، وذلك لأنهم كانوا مقرين بذلك ولا ينكرونه،

١) مفاتيح الغيب, الرازي (٢٦٤/٢٣). بحر العلوم, أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٤٧٦/٢), تحقيق د. محمود مطرجي, دار النشر: دار الفكر – بيروت. وطبعة أخرى دار الكتب العلمية, سنة النشر: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

ثم أثبت لهم الموت لأنهم كانوا يشاهدونه مع غيرهم، ثم أثبت لهم الله سبحانه بهذه الآية البعث الذي كانوا ينكرونه، ثم ذكر قدرته على كل شيء في الآيات التي تليها.

ولما كان التصوير ونفخ الروح من العظمة والجلالة بمكان، أشار إليه الله تعالى بقوله: (ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ) أي هذا الخلق المتحدَّث عنه بعظمتنا وقدرتنا خلقا عظيما آخر جليلا متحركا ناطقا خصيما مبينا بعيدا من الطين جدا؛ قال الرازي: وأصل النون والشين والهمزة يدل على ارتفاع شيء وسُموّه.

ولما كان هذا التفصيل لتطوير الإنسان سببا لتعظيم الخالق ناسب هذا أن يقال: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) أي ثبت ثباتا لم يثبته شيء، بأن حاز جميع صفات الكمال، وتنزه عن كل شائبة نقص، فكان قادرا على كل شيء، ولو داناه

شيء من نقص أو عجز لم يكن تام الثبات، ولذلك قال: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ) معبرا بالاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلى؛ ثم أشار إلى جمال الإنسان بقوله: (أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) أي المقدّرين، أي أنّ الله قدر هذا الخلق العجيب هذا التقدير البديع، ثم طوره في أطواره ما بين طفل رضيع، ثم محتلم شديد، ثم شاب نشيط، ثم كهل كبير، وفي النهاية شيخ هرم طاعن في السن، وهو وحده - سبحانه - الذي قدر كل ما بين ذلك من شؤون لا يحيط بها إلا الله اللطيف الخبير.

ولما كانت إماتة ما صار هكذا - بعد القوة العظيمة والإدراك التام - من الغرائب، وكان وجودها فيه وتكرارها عليه في كل وقت قد صيرها أمرا مألوفا، وشيئا ظاهرا مكشوفا، وكان عتو الإنسان على خالقه وتمرده

ومخالفته لأمره نسيانا لهذا المألوف كالإنكار له، أشار إلى ذلك بقوله تعالى مسببا مبالغا في التأكيد بقوله جل وعلا: (ثُمَّ إِنَّكُم) فلما كان من الممكن ليس له من ذاته إلا العدم، نزع الجار (من) فقال:(بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) أي الأمر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ستموتون بعد كل هذه الرحلة من البداية والنهاية، وأشار بهذا النعت إلى أن الموت أمر ثابت للإنسان في حال حياته لازم له، بل ليس لممكن من ذاته إلا العدم. (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ) والمقصود هنا عين البعث الأكبر التام، الذي هو محط الثواب والعقاب يوم القيامة، لأن من أقر بما هو دونه من الحياة في القبر وغيرها فسيُقرّ بالبعث يوم القيامة الذي يجمع فيه جميع الخلائق جميعا (تُبْعَثُونَ) فنقصه عن تأكيد الموت تنبيها على ظهوره، ولم يخله عن التأكيد لكونه على خلاف العادة، وليس في ذكر هذا نفي للحياة في القبر عند السؤال[1].

- وأنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق، فلا جرم أن يعقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا في هذه الآية الكريمة.

والحديث العام لهذه الآية الكريمة أنها تخاطب الجميع خطابا يبين لهم قدرة الله على الخلق ومن ثم قدرته على البعث، فتقول ثم إنكم أيها الناس من بعد إنشائكم خلقا آخر وتصييرنا لكم خلقا سويا ومن ثم ستموتون وعائدون ترابا كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وعودكم رفاتا باليا مبعوثون من التراب خلقا جديدا كما بدأناكم أول مرة.

١) نظم الدرر، البقاعي (١١٧/١٣). بتصرف.

واعلم أن المقصود من خلق هذا العالم لم يكن الإماتة والإفناء؛ ولكن عاقبة تتأمل وتقصد حيث قلبهم من حال إلى حال، ثم لم يتركهم على حالة واحدة، فلو كان المقصود من خلقهم الفناء والهلاك لا غير، لكان تركهم على حالة واحدة، ولم يقلبهم من حال إلى حال؛ فدل التحويل والتقليب من حال إلى حال على أن المقصود من الخلق العاقبة. والله أعلم.

موضع الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) بصيغة الغيبة ثم تغير السياق القرآني إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) في حين ينبغي أن يكون السياق كله بأسلوب الغيبة فيكون الكلام (ثم إنهم بعد ذلك لميتون) لكن الأسلوب القرآني التفت إلى الخطاب بدل من الغيبة فقال جل وعلا: (ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) وذلك لسرٍّ بلاغي هو التخويف والترهيب من الموت، وإعلام الخلق بحقارة الدنيا التي يتكالب عليها الناس.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- إن سبب الالتفات هو تذكير المخلوقين بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف مما بعده لمن اغتر بالدنيا، وذلك يناسبه أسلوب الخطاب.

ودلالة العطف هنا بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، لبيان ترتيب الموت على الحياة وفي هذا ما يُشعِر بقِصَر الدنيا و-ها وحقارتها، وأن

الحياة الدنيا ليست هي الحياة الحقيقة، إذ الموت المحتم والمكتوب على الجميع لا يلبث أن ينهيها، وحتى يقطع القرآن الشك عند الناس باليقين؛ استخدم القرآن أسلوب التوكيد بالخطاب لبيان هذا الغرض، فقضية الموت مع أنها هي الحق الذي لا مرية فيه؛ إلا أن الواقع عند أكثر الخلق ينظر إليها كأنها باطل وأن الحياة فقط في الدنيا، لذا ناسب السياق القرآني ذلك التوكيد على تلك القضية الشائكة عند البعض.

ومن ثم جاء الانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب وذلك الأسلوب إنما جيء به لما يشعر بتجسيد القضية وكونها شخصية بالمستمع، فينصرف الكلام إليه أول ما ينصرف، حتى لا يفر السامع من رهبة الخطاب إلى إنزاله في شأن غيره، فيكون غرض الانتقال إلى الخطاب للتخويف والترهيب في شأن نفس كل مخاطب، وفي هذا أشد التخويف والترهيب على طريق المواجهة.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

عند تتبع كتب التفسير والغوص في هذه المدونة التفسيرية أمكننا أن نلتقط دررا من كلام أهل العلم يقوي ما ذهبنا إليه، فيقول الإمام ابن عاشور: « وفيه نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ونكتته هنا أن المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف وإنما يناسبه الخطاب»[1].

قال ابن الجوزي والزمخشري: والعرب تقول لمن لم يمت: إنك مائت عن قليل، وميت، ولا يقولون للميت الذي قد مات: هذا مائت، إنما

١) التحرير والتنوير, ابن عاشور (٢٦/١٨). بتصرف.

يقال في الاستقبال فقط، وكذلك يقال: هذا سيِّد قومه اليوم، فيقال: هذا سائد قومه عن قليل، وكذلك هذا شريف القوم، وهذا شارف عن قليل وهذا الباب كلُّه في العربية[1].

والإشارة بقوله: [ذلك] إلى الأمور المتقدمة، أي: ثم إنكم بعد تلك الأمور العظيمة والتي لا تصدقونها في حياتكم صائرون إلى الموت لا محالة، وبعد هذه الرحلة البرزخية ستبعثون بعدها إلى يوم القيامة من قبوركم إلى المحشر للحساب[2].

وفي دلالة الالتفات عاقبة تتأمل وتقصد حيث قلبهم من حال إلى حال، ثم لم يتركهم على حالة واحدة، فلو كان المقصود من خلقهم الفناء والهلاك لا غير، لكان تركهم على حالة واحدة، ولم يقلبهم من حال إلى حال؛ فدل التحويل والتقليب من حال إلى حال على أن المقصود من الخلق العاقبة، وفي الالتفات دلالة على حتمية الصيرورة إلى الموت لا محالة[3].

****

١) زاد المسير, ابن الجوزي (٣/٢٥٦). بتصرف. تفسير الزمخشري (٣/١٧٩).

٢) فتح القدير, للشوكاني (٣/٥٦٥)، بتصرف. تفسير القاسمي, محاسن التأويل (٧/٢٢٤), تحقيق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ

٣) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة), أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (٧/٤٥٨), تحقيق: د. مجدي باسلوم, الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. تفسير الطبري « جامع البيان في تأويل القرآن» أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (١٧/٢٩), تحقيق: أحمد محمد شاكر, الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. بتصرف.

المطلب الثاني: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾) [سورة المؤمنون: ١٤].

معنى الآية إجمالاً:

- في هذه الآيات يبين ربنا أنه جعل الإنسان الذي هو من سلالة من طين، جعله نطفة في قرار مكين، وهو المكان الذي استقرت فيه نطفة الرجل من رحم المرأة. ووصفه بأنه مكين، لأنه مُكّن لذلك وتهيأ له ليستقر فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قرارا ومكانا، ثم يأتي الحديث عن صيرورة النطفة التي جعلها الله في قرار مكين إلى علقة، وهي القطعة من الدم فجعل الله ذلك الدم مضغة، وهي القطعة من اللحم فجعل - سبحانه - تلك المضغة وهي قطعة اللحم جعلها عظاما، ثم ألبس العظام لحما، ثم أنشأ ربنا سبحانه هذا الإنسان خلقا آخر كما نراه.

وهذه الهاء التي في: (أَنشَأْنَٰهُ) عائدة على الإنسان و يجوز أن تكون من ذكر العظم والنطفة والمضغة، جعل ذلك كله كالشيء الواحد، فقيل: ثم أنشأنا ذلك خلقا آخر بنفخ الروح فيه، فيصير حينئذ إنسانا، وكان قبل ذلك صورة[1].

وهو سبحانه يخبرهم عن تحويله إياهم وتقليبه من حال إلى حال لوجوه:

١) تفسير الطبري (٢٠/١٧)، تفسير البحر المديد, ابن عجيبة (٢٢٥/٤). بتصرف.

أحدها: يخبر عن قدرته وسلطانه وعلمه وتدبيره؛ ليعلموا أن من قدر على إنشاء العلقة من النطفة ما لو اجتمع الخلائق جميعًا على أن يعرفوا سبب خلق هذا عن هذا، مع إحاطة علمهم أن ليس فيها من آثار العلقة شيء ما قدروا على ذلك، وعلى ذلك جميع ما ذكر من النطفة والمضغة، ومن العلقة والعظم، ومن المضغة والإنسان، دل ذلك كله على أنه - سبحانه وتعالى - قادر؛ فمن قدر على هذا يقدر على إنشائهم من الأصل من لا شيء، ويقدر على إحيائهم بعد ما صاروا ترابًا، والأعجوبة في خلق الإنسان مما ذكر من النطفة والعلقة والمضغة ليس بدون خلقه إياهم من التراب من الوجوه التي ذكرنا.

وفيه دلالة علم الله الذاتي؛ لأن من قدر على تحويلهم من حال إلى حال في الظلمات الثلاث؛ دل أنه عالم بذاته لا بعلم مستفاد من أحد، ولا قوة مكتسبة.

وفيما ذكر من تحويله إياهم وتقليمه من حال إلى حال دلالة أنه لم ينشئهم لأنفسهم، وأن من أنشأ من العالم سواهم إنما أنشاه لهم، وأنشأ أنفسهم لعاقبة؛ لأنه لو كان إنشاؤه إياهم لأنفسهم وللفناء الذي ذكر بعد هذه الآية في قوله: (ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) لكان يتركهم على حالة واحدة ولا يحولهم من حال إلى حال، فإذا حولهم وقلبهم من حال إلى حال دل أنه لا للموت ولكن خلقهم الله لعاقبة تقصد، وهو البقاء الدائم الذي لا فناء فيه بعد البعث من الموت، (ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ) [سورة المؤمنون: ١٦][1].

فقوله جل ذكره: (ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

١) تأويلات أهل السنة, الماتريدي (٤٥٤/٧)، تفسير المحرر الوجيز, ابن عطية (٣٢٠/٤).

أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) في التفاسير أنه صورة الوجه، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة، واختص به من السمع والبصر والعقل والتمييز، وما تفرد به بعض منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات، ويقال في قوله تعالى:(ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ) أي أن الله هيأهم لأحوال عزيزة يظهرها عليهم بعد بلوغهم، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال فلقوم تخصيص بزينة العبودية، ولقوم تحرر من رق البشرية، ولآخرين تحقق بالصفات الصمدية بامتحانهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية.

موضع الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) بصيغة الغيبة حيث عدل عن الحضور الذي جاء بصيغة التكلم قبلها في قوله تعالى: (ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ) فعدل من الحضور للغيبة وكان مقتضى السياق أن يقال (فتباركنا وأحسنّا الخلق). ليتوافق مع ما قبله من ضمير التكلم (خلقنا – فخلقنا – فكسونا – أنشانا) لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من التكلم للغائب للدلالة على قدرة الله على الخلق من العدم على أعظم صورة، وأبدع هيئة.

سبب الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- والانتقال إلى الغياب من التكلم دلالته توكيد الحضور بآثار المنن من الواهب - سبحانه وتعالى – وأن التفضل والتعطف منه على عباده، فهو

وإن غاب حسا فقد وجدت آثار قدرته، وبدائع صنعته، فمن غفل عن آثاره ودلائل تجلياته فهو عن ذاته أغفل - والعياذ بالله-.

ومن أغراض هذا الالتفات هو الدلالة على قدرته - جل وعلا - وسلطانه وعلمه وتدبيره؛ وذلك ليعلموا أن من قدِر على إنشاء العَلَقة من النطفة ما لو اجتمع الخلائق جميعًا على أن يعرفوا سبب خلق هذا عن هذا، مع إحاطة علمهم أن ليس فيها من آثار العلقة شيء، دل ذلك كله على أنه قادر خالق لطيف بعباده؛ فمن قدر على هذا يقدر على إنشائهم مرة أخرى، ويقدر على إحيائهم بعد ما صاروا ترابًا.

أراء العلماء في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

وبتصفح كتب التفسير وجدنا من أقلام العلماء ما يرشح هذه المعاني.

فقوله جل ذكره: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) بيان خلق السماوات والأرضين بجملتها، والعرش والكرسي، مع المخلوقات من الجنة والنار، وكل هذه المخلوقات ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خلقه بنى آدم تخصيصا لهم وتمييزا وإفرادا لهم من بين المخلوقات، وبيان أن الإنسان أحب المخلوقات لخالقهم - جلّ في علاه -[1]. وقوله: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤) [سورة المؤمنون :14]. اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله؛ لأن قوله: (فَتَبَارَكَ) لما حذف متعلقهِ كان عاما، فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره. وكذلك حذف متعلق (ٱلۡخَٰلِقِينَ) يعم خلق الإنسان، وخلق غيره كالجبال والسموات. والفاء في (فَتَبَارَكَ) تفريع على حكاية

١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/١٨)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (٣٧١/٢)، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م. بتصرف.

هذا الخلق العجيب بإنشاء الثناء على الله بأنه أحسن الخالقين. وأيضا هنا التفات إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته - سبحانه عز وعلا -[1].

****

١) إرشاد العقل السليم, أبو السعود (١٢٧/٦)، روح المعاني, الألوسي (٢١٢/٩). تفسير المراغي (٨٤/٢٩).

المطلب الثالث: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢ ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٢].

معنى الآية الكريمة إجمالاً:

- يذكر الله تعالى نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – وقومه من أهل مكة، أنه أحدث من بعد مهلك قوم نوح قرنا آخرين فأوجدهم وأرسل لهم داعيا إليه تعالى أن يا قوم اعبدوا الله، هذا الرب الذي هو المألوه المحبوب، فاسمعوا لما أمر وأطيعوه دون الآلهة والأصنام، فإن العبادة لا تكون إلا له وحده، ولا يجوز يقول: ما لكم من معبود يصلح أن تعبدوا سواه. أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه،

(ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١) أي أعقبنا من بعد هلاك قوم نوح. أقواما آخرين قيل: هم قوم عاد. وقيل هم ثمود قوم صالح.

(فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢)، فأرسلنا في هؤلاء الأقوام، رسولا من أنفسهم، يعني هودا، لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد. وقيل: هم قوم ثمود فأرسلنا فيهم صالحا[1].

ولما كانت هذه القصة من أغرب القصص، لذا حث القرآن على تدبرها

١) تفسير الطبري (٣٩/١٧)، تفسير القرطبي (١٢١/١٢). بتصرف.

بقوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)[سورة المؤمنون: ٣٠]. أي أن ذلك الأمر العظيم الذي ذكر من أمر نوح وقومه وكذا ما هو تمهيد له من الآيات، علامات دالات على صدق الأنبياء في أن المؤمنين هم المفلحون، وأنهم الوارثون للأرض بعد الظالمين وإن عظمت شوكتهم، واشتدت صولتهم وجولتهم، وإنا بما لنا من العظمة والقدرة كنا بما لنا من الوصف الثابت الدال على تمام القدرة، لمبتلين وممتحنين، فاعلين فعل المختبر لعبادنا المخلوقين من الجن والإنس، وذلك بإرسال الرسل ليَظهر لهم في عالم الحياة الدنيا، مَن هو الصالح منهم من غيره، ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم، وينقص سيئاتهم، ويعلي درجاتهم، ثم نجعل لهم العاقبة فنبلي بهم الظالمين بما يوجب دمارهم، ويخرب ديارهم، ويمحو آثارهم، هذه عادتنا المستمرة إلى أن نرث الأرض ومن عليها فيكون البلاء المبين.

ولما كان المقصود الإبلاغ في التسلية، عدي الفعل ب «في» دلالة على أنه عمهم بالإبلاغ كما يعم المظروف الظرف، حتى لم يدع واحدا منهم إلا أبلغ في أمره فقال: (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) فكان القياس يقتضي مبادرتهم لاتباعه لعلمهم بما حل بمن قبلهم لأجل التكذيب، ولمعرفتهم غاية المعرفة لكون النبي الذي أرسل إليهم إنما هو منهم، لكن بما جعلنا عليه من المحاسن، وما زيناه به من الفضائل كلها التي هي محض فضل من الله، ولأن عزه عزهم، ولدعائه لهم إلى الله ما لا يخفى حسنه على عاقل، ولا يأباه منصف؛ ثم بينت الآيات ما أرسل به بقوله: (أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) وكانت دعوة الرسل جميعا أن اعبدوا الله وحده لأنه لا مكافئ له، ولذا حفظ اسمه فكان لا

سمي له؛ وليس لكم من إله تعبدوه غيره.

ولما كانت المثلات قد دخلت من قبلهم في المكذبين، وأناخت صروفها بالظالمين، فتسبب عن عملهم بذلك إنكار قلة مبالاتهم في عدم تحرزهم من مثل مصارعهم، قال: (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أي تجعلون لكم وقاية مما ينبغي الخوف منه فتجعلوا وقاية تبينكم وبين سخط الله على عبادة الأوثان[1].

وقوله فأرسلنا فيهم رسولا أي جعل الرسول بينهم وهو منهم، أي من قبيلتهم على أصح ما قيل. وكان التنبيه على أن رسولهم منهم مقصودا إتماما للمماثلة بين حالهم وحال الذين أرسل إليهم محمد - صلى الله عليه وسلم -. وكلام رسولهم مثل كلام نوح. و (أن) تفسير لما تضمنه أرسلنا من معنى القول[2].

موضع الالتفات عن التكلم إلى الغيبة.

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ) بصيغة الغيبة حيث عدل عن الحضور الذي جاء بصيغة التكلم قبلها في قوله تعالى: (فَأَرۡسَلۡنَا) فنجد أن السياق القرآني هنا عدل من الحضور للغيبة وكان مقتضى السياق أن يقال (اعبدوني). ليتوافق مع ما قبله من ضمير التكلم (أرسلنا). لكنه عدل عن ذلك للإشعار بإقامة الحُجّة على الكافرين الذين كذبوا الرسل، وبيان عظيم جرمهم في حق الله ورسله.

---

١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣٧/١٣). تفسير القرآن « تفسير العز بن عبد السلام» عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (٣٧٤/٢)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥١/١٨).

سبب الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- إن الانتقال إلى حال الغيبة إنما جاء به السياق القرآني ليفيد أن الرسول ليس إلا مبلغا عن غائب عنا هو الله تعالى، وذلك تعليل لما أمرنا به - سبحانه وتعالى - من العبادات كما أن في الآية الكريمة تصريح بإرسال الرسل على صيغة التكلم في قوله: (فَأَرْسَلْنَا) وفي هذا ما فيه من الإشعار بإقامة الحجة على المُرسَل إليهم، وبيان الأمر والنهي لهم، وإعلامهم بأن لا عذر لأحد ممن كذبوا الرسل عند الله تعالى، كما أن فيه إشعار بمنّة الله على عباده، بإرسال رسله وأصفيائه من خلقه إليهم وفي تصديق واتباع الرسل الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة، لكنهم كذبوا الرسل وخالفوهم ولم يكتفوا بذلك بل فجروا في خصومتهم إياهم، ولم يقابلوا النعمة والمنّة التي حباهم الله بها بشكره، وإنما كفروا بالله وغدروا برسله، ومن ثم فإننا نجد في الانتقال من التكلم إلى الغائب بيان أن الرسل والمرسل إليهم كلهم سواء في مقام العبودية لله، كما أن فيه البيان التام والهامّ لمهمة الرسل، وهو إبلاغ الخلق عن الله، وإقامة حجته على الناس.

أراء العلماء في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

«إن الانتقال إلى الغائب الذي هو اسم الجلالة [الله] ومعناه الذي تألهه القلوب وتحبه، تشويقا ولوعة لهذه القلوب حبا لهذا الإله الذي حجب نفسه عن خلقه لحكمته، ومنها ليعلم من يخافه بالغيب، ومن يؤمن من عباده بغيبه، حتى إذا ما تم الأمر وانفض الحساب، كشف لهم - سبحانه - عن نوره وجلاله وجماله، فهو تشويق لغائب محبوب، وليس

بعد هذا الأسلوب أسلوب يمكن أن يتخذ مهيًا للتشويق وتأخذ بالألباب، ففي مبتدأ الأسلوب عطاء ومما يقتضي المحبة، ثم تشويق لهذا المحبوب بالتعبير عن كونه معبودا محبوبا في هذا السياق العجيب[1].

ومن تأمل تعليقات المفسرين هذه الآية وجدهم قد تنبهوا لمثل هذه النكات.

في قوله تعالى (أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ) مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله[2].

وأن في (أن اعبدوا الله) يجوز أن تكون مفسرة وأن تكون مصدرية، والأمر بهذا نصحا لهم وإرشادا، وكونه منهم أدعى لصدقه، وأبعد عن التُّهم، كما أن في أمره تذكيرا لهم بإعمال العقل واللب فيما يأمر به وينهى عنه، كما أن في الالتفات إيماء إلى أن هذا النصح من هذا الرسول من مظاهر رحمة هذا المعبود سبحانه[3].

****

١) إرشاد العقل السليم, أبو السعود (٢٠٨/٣), تفسير الثعلبي (٤٨/٧). بتصرف.
٢) روح المعاني, الألوسي (٣١٢/٧).
٣) البحر المحيط, أبو حيان (٥٩٩/٧)، تفسير ابن كثير (٤٧٤/٥). بتصرف.

المطلب الرابع: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى:(وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾) [سورة المؤمنون: ٧٦].

معنى الآية الكريمة إجمالا:

- قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ) الضمير هنا يعود إلى مشركي مكة الذين كانوا يعاندون النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقيل بل يعود إلى الكفار عامة من حيث إنه بيان لحال الكفار، في أنهم إذا نزلت بهم جائحة أو شديدة خنعوا في وقت نزولها وخضعوا لله ودعوه أن يكشف عنهم ما هم فيه، وما استكانوا لها وما تضرعوا لها وما تضرعوا بعدها وآمنوا بربهم. فهذا وصف عام ليبين أن الكفار إنما هم يخنعون عند الشدائد، ويعودون إلى الاستكبار بعد كشف الضر عنهم، فيخنعون ثم يتمردون فالله جل علاه كان ينزل الشدائد على الكافرين، فيذلون عند نزولها، ولكن إذا انكشفت الغمة عادوا إلى كفرهم وطغيانهم، كما رأينا في فرعون وملئه، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن ذلك شأن كل الكافرين دائما في كل زمان ومكان، يكشف الله تعالى عنهم الضر إذا أصيبوا به، فيخنعون في وقته، ثم يعودون إلى كفرهم بعد كشفه.

والاستكانة معناها الانتقال من كون إلى كون، وحال إلى حال، فهم قد انتقلوا من الحال الذي هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذي يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان بالله ورسوله، لكنهم لم يتضرعوا لله. (وَمَا

يَتَضَرَّعُونَ) أي لم ينتقلوا إلى كون الإيمان، وما اتجهوا بالضراعة الدائمة المتجددة لله تعالى المستمرة شأنهم شأن المؤمنين الضارعين لربهم، وكان نفي المضارع لنفي تجدد الضراعة ودوامها في كل أحوال الشخص، لا في وقت الشدة فقط.

فكأن السياق القرآني يقول لمن نزل عليهم من أهل مكة، ولقد ابتليناهم بالمصائب والشدائد في المال والأنفس الكثير، فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم، وما خشعوا وما خضعوا لربهم، وما دعوا ولا تذللوا، مما كان سببا أن أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا، وسخطنا وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف فما خضعوا لربهم فينقادوا لأمره ونهيه، وينيبوا إلى طاعته وما يتذللون له ولقد تعرضوا للعذاب بالجوع والمرض والحاجة، فما خضعوا لربهم وما خشعوا له، وما تضرعوا بالدعاء لله في الشدائد التي تصيبهم، وإن دلّ هذا فإنما يدلّ على أنهم قوم متمردون، وأناس مستبدون، وقوم مصرّون على الكفر والشرك والضلال، فلا غرابة إن عذبوا أشد العذاب[1].

وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أخذ الله قريشا بسني الجدب، إذ دعا عليهم رسول الله. قال الحسن: إذا أصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار، وتضرعوا إلى الله، وقرأ هذه الآية[2].

١) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (١٠/ ٥١٠١). بتصرف. التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٧٠٩).
٢) تفسير الطبري (١٩/ ٦٠)، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٨٧).

وعلى لسان أهل الإشارة يقولون: أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائده.. تنبيها لهم، فما انتهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهال لأسرع الله زواله عنهم، ولكنهم أصروا على باطلهم[1].

- المعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب، لارتدوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه، واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم، فهل وجدت منهم يا محمد بعد ذلك استكانة أو تضرع لربهم، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك. أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رئي فيهم لين مقادة وهم كذلك، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون ويرجعون ولكن لا رجوع ولا ينفع الندم حينها[2].

وفي هذا وصف دقيق لحال غريبة هي حال المشركين في مكة، فإنه لا حق لهم على الإطلاق في معاداة دعوة النبي محمد - صلّى الله عليه وسلّم - وكفرهم به، وبالقرآن الذي أنزل عليه، تشريفا لهم وتكريما، وهداية لهم، ونورا، وتبيانا[3].

---

١) تفسير القشيري «لطائف الإشارات» عبد الكريم بن عبد الملك القشيري (٥٨٣/٢)، تحقيق: إبراهيم البسيوني الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر الطبعة: الثالثة. بتصرف.

٢) تفسير الكشاف (١٩٧/٣)، تفسير ابن عطية (١٥٢/٤).

٣) التفسير الوسيط، الزحيلي (١٣٠٨/٦). بتصرف.

وما في الآية يعتبر صفة عامة لذلك الصنف من الناس، القاسية قلوبهم، الغافلين عن الله، المكذبين بالآخرة، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله- صلى الله عليه وسلم -. والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله، والشعور بأنه – وحده سبحانه - هو الملجأ والملاذ. والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رقّ ولان، واستيقظ وتذكّر، وكانت هذه الحساسية هي الحارس الواقي من الغفلة والزلل، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء. فأما حين يسدر في غيه، ويعمه في ضلاله، فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح، وهو متروك لعذاب الآخرة، الذي يفاجئه، فيسقط في يده .

موضع من الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى:(فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) بصيغة الغيبة حيث عدل عن الحضور الذي جاء بصيغة التكلم قبلها في قوله تعالى: (وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ) وهذا التفات عن التكلم إلى الغيبة. نجد أن السياق القرآني هنا عدل من الحضور للغيبة وكان مقتضى السياق أن يقال (فما استكانوا لنا وما تضرعوا لنا). ليتوافق مع ما قبله من ضمير التكلم (أخذنا) الذي هو ضمير المتكلم. لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من التكلم للغائب لسبب بلاغي بديع وهو الإيحاء للكفار بالهيبة والخوف الذي يحصل من بطش الله - جل جلاله -، حتى يتحقق بذلك جانب الخوف منه حتى يعبدوه وحده، والدلالة على عظيم جرمهم في حق الله ورسله من التكذيب الذي هو سبب عذابهم.

سبب الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- نتأمل كيف كان السياق في سياق التكلم بما يوحي بالهيبة والخوف الذي يحصل من بطشه جل جلاله، لكي يتحقق بذلك جانب الخوف، لكنه لما انتقل إلى جانب الرجاء انتقل من الكلام بالتكلم إلى الغائب بصيغة الغائب معبرا بلفظ الربوبية والتي تقتضي القيام بحق من يربيه، ويرعاه، ويؤمنه ويحنو عليه، لكنه استثار فيهم حاجتهم إلى مربيهم ومدبر شؤنهم، ليقع منهم الأمر المسارعة والمبادرة للطلب إلى من هو أرفق وأشفق عليهم. فلم يقل [فما استكانوا لنا] لئلا يقر في قلب السامع سوى العظمة والهيبة، بل عبر بما يشعر بالرحمة والشفقة.

أراء العلماء في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- وإذا ما نظرنا في كتب علما التفسير لوجدنا أقوالهم متقاربة.

فقد قالوا في تفسير الآية من حيث البلاغة والبيان فيها «وإذا علمت أن الاستكانة هي انخناس النفس تحت دواعي القهر، يدل هذا على الإقرار بأنه هو الملك جل وعلا، وأنه وحده المتصرف – سبحانه وتعالى - والأعجب أن مقتضى البديهة، وظاهر السياق، أن ينسبهم إليه على أنه هو الخالق أو القادر أو شيء من صفات الجلال، لكنه عدل عن ذلك إلى إضافة نفسهم لهم بصفة من صفات الحنان والرعاية، بل هي جماع الود واللطف والرحمة والعناية والرعاية، مما يدل على كامل رعايته، وتام عنايته بهم.

إن الظروف قد تلجئ الإنسان إلى أن يستكين في باب من يكره، بل أحيانا على باب عدوه، فإذا ألجأك الضر إلى أبواب العدو أفلا يلجأك الضر

واليسر إلى باب الرب – جل في علاه – فأفاد هذا الالتفات وجوب الالتجاء إلى باب الله الذي تعطف وتلطف في الخطاب بدلالة الالتفات بحيث أنك إذا لجأت إليه فإنك لتلجأ إلى رب رحيم لا إلى جبار منتقم بك في حال معصيتك.

في هذه الآية إخبار عن حال مؤكدة بأنه تعالى قد أذاقهم العذاب والبأساء فما استكانوا لمن هو بهم رحيم، وهو مأخوذ من دلالة الالتفات في قوله [فما استكانوا لربهم]، وفي ذلك يخبر عن سفههم وجهلهم باللَّه، وقسوة قلوبهم، وتمردهم وعنادهم؛ حيث أخبر أنهم وإن أُخذوا بالعذاب لم يتضرعوا إليه، وما استكانوا له بجهلهم بعذاب اللَّه؛ حيث أخبر أنهم حتى وإن أخذوا لم يستكينوا[1].

وفي قوله: (وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ) معناها أخذناهم متلبسين بالعذاب، أي أنه سبحانه أخذهم، وهم في حال العذاب وأنقذهم، ومع ذلك استمروا على كفرهم، وأنهم يستمرون في غيهم حتى يجيئهم العذاب الذي لَا يزول[2].

والتعريف في قوله بالعذاب للعهد، أي بالعذاب المذكور آنفا في. ومصب الحال هو ما عطف على جملتها من قوله: (فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) فلا تتوهمن أن إعادة ذكر العذاب هنا تدل على أنه عذاب آخر غير المذكور آنفا مستندا إلى أن إعادة ذكر الأول لا طائل تحتها. المعنى فلم يكن حظهم حين أخذناهم بالعذاب إلا العويل والجؤار دون التوبة والاستغفار.

وقيل: هذا عذاب آخر سابق للعذاب المذكور آنفا فيتركب هذا على

١) تأويلات أهل السنة، للماتريدي (٤٨٥/٧). بتصرف.
٢) زهرة التفاسير (٥١٠٢/١٠)، تفسير الشوكاني (٥٨٥/٣).

التفاسير المتقدمة أنه عذاب الجوع الأول أو عذاب الجوع الثاني بالنسبة لعذاب يوم بدر. والتعبير بالمضارع في يتضرعون لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم. والتضرع: الدعاء بتذلل[1].

****

١) التحرير والتنوير, ابن عاشور (١٠٢/١٨). بتصرف.

المطلب الخامس: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥ – ١١٦].

معنى الآية الكريمة إجمالاً:

«فلا معبود بحق ينبغي أن يُعبد إلا الله المالك المتصرف في خلقه وهو الحقّ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ «والربُّ: مرفوع بالردّ على الحقّ، ومعنى الكلام: فتعالى الله الملك الحقّ، ربّ العرش الكريم، لا إله إلا هو»[1].

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ هل ظننتم أيها المشركون أننا خلقناكم سدى وباطلا تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فلا يخطر هذا ببالكم، فستموتون وتبعثون. ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ والمعنى: تعاظم ربنا وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته - سبحانه وتعالى -. فهو جل في علاه الملك الحق لا إله إلا هو، فكونه مالكا للخلق كلهم فهذا حق وصدق، ووعده، ووعيده واقع لا محالة، وهو الإله المعبود لا سواه، لما له من الكمال والجلال وهو رب

١) تفسير الطبري (٨٤/١٩).

العرش الكريم، وكل ما دونه من باب أولى لا يستحق العبادة، لذلك لم يخلقكم ربكم عبثا[1].

وقد جاء في الآية السابقة إيماء إلى أن الحياة الدنيا أمدها قصير جدا بالنسبة للآخرة، وفي الآخرة إما جنة أبدا أو نار أبدا، وإن ذلك مع ما سبق يتبين أنه لابد من البعث، وأن حكمة الخلق والإيجاد للإنسان لا تتحقق إلا به. ولما كان حالهم في ظنهم أن لا بعث ولا نشور، حتى اشتغلوا بالفرح، والبطر والمرح، والاستهزاء بأهل الله، حالهم في هذا كحال من يظن العبث على الله الملك الحق المبين، سبب عن ذلك عطفا على قوله تعالى: (فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾) [سورة المؤمنون: ١١٠]. وإنكاره عليهم في قوله: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) فكأنه يقول لهم أحسبتم أنا نهملكم فلا ننصف مظلومكم من ظالمكم، ومن ثم حسبتم أننا خلقناكم بما لنا من العظمة عبثا، عابثين أو للعبث منا أو منكم، لا لحكمة إظهار العدل والفضل، حتى أشغلتم بظلم أنفسكم وغيركم ولذا قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) جاءت (الفاء) لتفيد ترتيب السؤال على ما قبله، وهي مؤخرةٌ عن تقديم؛ لأن أداة الاستفهام لها الصدارة، والاستفهام للاستنكار أي إنكار ما وقع من الكفار، فهم قد حسبوا ذلك وقالوا جميعا. (وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) [سورة الأنعام: ٢٩]. ولفظة (أَنَّمَا) أداة حصر، أي كأنهم يقولون ما خلقنا إلا عبثا، أي من غير حكمة باهرة ظاهرة، أي: أخلقناكم لتعبثوا من غير طلب مطلوب منكم، ولا

١) تفسير السعدي (ص: ٥٦٠). بتصرف.

غاية تتجهون إليها، لتلهو أو تلعبوا وتقولوا وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، ولا محاسب يحاسبكم. (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) الواو عاطفة أي وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون لتحاسبوا على ما كان منكم من لهو عابث، وتقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص والتهديد بالرجوع إليه سبحانه وتعالى وحده بحيث لا يكون معهم شفيع يشفع، ولا ولي يناصر، ولا فدية تعطى، بل يؤأخذ كل على ما فعل، إن قليلا، وإن كثيرا، وإن خيرا، وإن شرا، وأكد سبحانه وتعالى رجوعهم إليه، بالجملة الاسمية، وبتصديرها بـ (أنكم) الدال على التحقيق، والله سبحانه وتعالى أعلم. الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على ما ذكر من خلق الإنسان والكون كله أن يكون في علو لا يتسامى إليه أحد في الوجود، وقد وصفه سبحانه بصفات خمس هي لا تكون إلا له سبحانه؛ إذ هو كامل الوجود، وتلك صفات كامل الوجود، وليست إلا له: الأولى: أنه سبحانه له وحده الملك والسلطان، ولا سلطان فوق رب العالمين.

والصفة الثانية: أنه الحق الثابت الدائم، الذي لا ثبات لغيره، وملكه قائم على الحق والعدل؛ لأنه قام على كونه خالق الوجود كله، وهو ربه، فهو الملك وهو الحق، وهو قائم على دعائم الحق، ويحكمه سبحانه وتعالى بالعدل.

والصفة الثالثة: أن الله وحده لا إله غيره؛ سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان الخالق وحده، وله الملك وحده، فهو الإله وحده، وقد أشرنا من قبل إلى أن العرب كانوا يعترفون بأن الله وحده خالق كل شيء، وأنه واحد في ذاته وصفاته، ولكن عند العبادة يعبدون الأوثان، فالله سبحانه يبين أن الخلق ووحدة الذات توجبان وحدة الألوهية.

الصفة الرابعة: أنه رب العرش، أي صاحب السلطان وحده في الدنيا والآخرة فلا سلطان لشخص أو حجر، إنما السلطان له وحده في الدنيا والآخرة.

الصفة الخامسة - أنه الكريم الذي فاض بنعمه الظاهرة والباطنة على الوجود كله، ويغفر ويرحم، والذي يقبل التوبة عن عباده[1].

- وبعد هذه الجولة في الآية نجد أن الله خاطب كل من أنكر البعث بعد الموت بقوله أفحسبتم أيها الأشقياء المنكرين للبعث أنا خلقناكم يوم خلقناكم، عبثا ولعبا وباطلا، وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا ترجعون أحياء، ومن ثم ستجزون بما كنتم في الدنيا تعملون من الكفر والشرك بالله؟ تعالى الله الملك الحق عما يقولون أو يصفه به هؤلاء المشركون، الذين زعموا زورا وبهتانا منهم أن لله شريكا في ملك، وعما يضيفون إليه من اتخاذ البنات (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ)

موضع الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) بصيغة الغيبة حيث عدل عن الحضور الذي جاء بصيغة التكلم قبلها في قوله تعالى:(أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وهذا التفات عن التكلم إلى الغيبة، فنجد أن السياق القرآني هنا عدل من الحضور للغيبة وكان مقتضى السياق أن يقال: (فتعالينا نحن .. لا إله إلا أنا..). ليتوافق مع ما قبله من ضمير التكلم (خلقناكم .. إلينا) الذي هو ضمير المتكلم.

١) نظم الدرر، البقاعي (١٣/١٩٥). زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (١٠/٥١٢٧). بتصرف.

لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من التكلم للغائب لسبب بلاغي بديع وهو تعظيم الله – سبحانه وتعالى – وبيان عدم عجزه وتنزيهه عن العجز أن يبعث هؤلاء وهو الذي خلقهم أول مرة، وهو سبحانه عليم بكل خلقه وكذلك للإيحاء للكفار بالهيبة والخوف الذي يحصل من بطش الله - جل ذكره – إذا هم أشركوا به غيره من مخلوقاته.

سبب الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- يأتي سبب الالتفات هنا لبيان تعظيم الله جل جلاله وتنزيهه عن أن يعجز أن يبعث من خلقهم أول مرة. كما أن في السياق القرآني هنا تنبيه للإنسان المكذب بالبعث وتذكير له بأنه راجع إلى رب رحيم بعباده أكثر من أنفسهم، وحاشاه عز وجلّ أن يظلم أحداً، أو أن يجامل إنسان على حساب غيره، أو أن يكون عاجزاً عن بعث المخلوقين يوم القيامة ومن ثم سيحاسبهم جميعا عما اقترفوه في حق الله وحق أنفسهم، فهم أنكروا البعث وما بعده من حساب وجنة أو نار وكل هذا واقع وسيرونه بأعينهم.

ألا ترى أن صيغة التكلم في قوله تعالى: (أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) تُشعِر بالمنّة من الله على عباده، كما تُظهر مدى عظمة ربنا وقدرته على البعث كما خلق – سبحانه وتعالى - الخلق أول مرة فأيسر عليه بعثهم ولا يصعب على الله شيء، كما أن في الآية إيماء إلى أن الله هو صاحب المنة على الإنسان ووجود التقصير من الإنسان.

ثم يأتي هذا الالتفات إلى الغائب في قوله تعالى: (فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) إشعارا بعلوية

هذا الرب الجليل وقدرته على كل ما يظن الملحدون والمشركون أن لا قدرة له عليه، فأي عظمة وقدرة في ذلكم الخطاب القرآني البليغ الذي ينتقل من التكلم إلى الغائب موضحا ومشعراً المستمع برفعة هذا الإله الواحد – سبحانه – عن كل هذه التصورات الفاسدة في عدم قدرته على البعث والنشور لمخلوقاته وحسابهم، كما أن في هذا الالتفات البليغ تنزيها لله عن العبث وذلك بما ذكره الله عن نفسه من أوصاف تناسب السياق السابق من عدم العبثية في شأن الخلق الذين خلقهم الله، بل يتضح من هذا السياق أن إليه وحده منتهى الحكمة في كل شئونه – سبحانه وتعالى- كما أن هذه الصفات الربانية الجليلة موضحة لذوي الألباب أنه لا رب سواه، وأنه لا معبود بحق إلا إياه، فانظر وتأمل كيف أفاد هذا الالتفات كل هذه المعاني، فسبحان من هذا كلامه.

أراء العلماء في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

وبتصفح بعض كتب التفاسير نجد هذه المعاني حاضرة عندهم، ففي قوله(عَبَثًا) حال، أي: عابثين، كقوله لاعبين أو مفعول له، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) معطوف على أنما خلقناكم ويجوز أن يكون معطوفا على عبثا أي: للعبث، ولترككم غير مرجوعين وتلكم هي دلالة التكلم في هذا الموضع والحق الذي يحق له الملك، لأن كل شيء منه وإليه. وفي هذا دلالة واضحة على أنه - سبحانه – هو الثابت الذي لا

يزول ولا يزول ملكه. وقوله تعالى: (رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ) دلالة على أن الرحمة إنما تنزل منه وكذلك الخير والبركة، وهي دلالة الكلام بالغيبة ليتحقق مقصد التنزيه في ذلك»[1].

والكلام في قوله تعالى (أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ) يحتمل وجهين:

أحدهما: معناه أنكم أيها المشركون المكذبون قد حسبتم أنما خلقناكم عبثا وهملاً ونترككم سُدىً – وهذا غير ممكن – ومستحيل في ذات الله.

والثاني: معناه لا تحسبوا أيها المكذبون بالبعث ويوم القيامة أنا إنما خلقناكم سدىً أو عبثا وأنكم لا ترجعون إلينا يوم القيامة.

والمعنى أن خلق الله إياهم لا لعاقبة تتأمل أو لمنافع تقصد؛ للهلاك والفناء فيكون هذا هو العبث؛ كبناء المباني لا لمنفعة تقصد به، ولكن للنقض يكون عبثا في الشاهد، فلو لم يكن المقصود من خلق الخلق إلا الموت والفناء خاصة، لا لعاقبة تقصد - كان سفها وعبثا. وهذا مستحيل في حق الله مدبر الأكوان وخالق الخلق، وهو الحكيم الخبير.

فتأمل دلالة أسلوب التكلم وما يوحي به من التفضل والتمنّن بهذه المنن الجسام والنعم العظام. ومن ثم انتقل للكلام بصيغة الغيبة تعظيما لشانه - سبحانه - وتعظيما لذاته العلية أن يكون خلق الخلق لا لحكمة أو ومنفعة. (ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ) من أسماء الله، أو الملك الذي خلق الخلق بحكمة، وهو مفيد لمعنى التنزيه والتعظيم (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) زيادة تنزيه وتبرئة للخالق - سبحانه - عن جميع ما قالوا فيه وهو غرض

١) تفسير الكشاف للزمخشري (٣/٢٠٧)، بحر العلوم السمرقندي (٣/٢٠١)، بتصرف.

أسلوب الالتفات من التكلم للغيبة بالأصالة هنا[1].

ويقول الإمام أبو السعود «وفي هذا الالتفات من دلالات التنزيه والتعظيم للذات العلية ما تعجز العقول عن حصره، فتأمل وسل الله الفهم»[2].

وقد يراد من هذا الالتفات القصد إلى التذكير والاستنتاج مما تقدم من الدلائل المبينة لمعنى تعاليه، والثناء عليه بالعلو، وفي هذا الالتفات تدليل على انفراده بالإلهية، وذلك وصف ذاتي، وبأنه مالك أعظم المخلوقات-أعني: العرش-، وذلك دليل عظمة القدرة»[3].

- والالتفات للغيبة في قوله: (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ) لاستعظام ما قاله المشركون في حقه تعالى وهو المتصرف في شئون عباده من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب حكمته البالغة. والمعنى: ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله كما تنزه عن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة.

****

١) تفسير الماتريدي (٧/٥٠١). بتصرف.
٢) إرشاد العقل السليم (٥/٨٥).
٣) التحرير والتنوير, ابن عاشور (١٨/١٣٥). بتصرف.

المبحث الثالث
من صور الالتفات في غير الضمائر
في سورة المؤمنون

المطلب الأول: الالتفات عن الاسم إلى الفعل:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٥ - ١٦].

معنى الآية الكريمة:

- بعد أن ذكر سبحانه أحوال السعداء المفلحين- أتبع ذلك بذكر مبدئهم ومآل أمرهم وأمر غيرهم من بنى الإنسان، وفى هذا إعظام للمنة الربانية على الخلق جميعا، وحث على الاتصاف بحميد الصفات، وتحمل مؤونة التكاليف، ثم ذكر أن كل ذلك منته إلى غاية محددة هي يوم القيامة الذي تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. «والإشارة في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ إلى الأمور المتقدمة من أطوار خلق الإنسان، أي: ثم إنكم بعد تلك الأمور لصائرون إلى الموت لا محالة ولا مفرّ منه، وبعد الموت هناك أمر بعد الموت وهو ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب»[1].

وهنا يُبين الله المراحل التي تمرون بها أيها البشر حيث تصيرون أطفالا، فصبيانا فغلمانا، فشبانا، فكهولا، فشيوخا.. ثم مصيركم بعد ذلك كله، أو خلال ذلك كله، إلى الموت المحتوم الذي لا مفر لكم منه، ولا مهرب لكم عنه. ثم إنكم أيها الخلق تبعثون يوم القيامة من قبوركم للحساب والجزاء.

١) تفسير المراغي (١٨/ ٨). بتصرف. فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٦٥).

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر الإنسان بأطوار نشأته. وبحلقات حياته: وبنهاية عمره. وبحتمية بعثه.

وفي هذا التذكير ما فيه من الاعتبار للمعتبرين، ومن الاتعاظ للمتعظين، ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله- تعالى-. (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ) أي بعد خلقنا لكم تعيشون المدة التي حددناها لكم ثم تموتون، أحياء للحساب والجزاء لتحيوا حياة أبدية لا يعقبها موت ولا فناء ولا بلاء.

وهذه الآيات فيها بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته. وبيان خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها. والأهم معرفته للناس جميعا هو بيان مآل الإنسان بعد خلقه. كما قررته عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها الملاحدة والمشركون.

يقول ابن عاشور: وتعداد الدلائل على تفرد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات إنما هو لقصد إبطال الشرك. وثم للترتيب الرتبي لأن أهمية التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهمية ذكر الخلق لأن الإخبار عن موتهم توطئة للجملة بعده وهي قوله ثم إنكم يوم القيامة تبعثون وهو المقصود[1].

والمتأمل في هذه الآية وهي تحدثنا عن الموت الذي لا ينكره أحد ولا يشك فيه أحد، ومع ذلك أكدها الحق - تبارك وتعالى - بأداتين من أدوات التوكيد: (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) فأكدها بإن وباللام، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر، فيأتي التأكيد على قدر ما يواجهك من إنكار، أما خالي الذهن فلا يحتاج إلى توكيد[2].

١) التحرير والتنوير (٢٦/١٨). التفسير الوسيط، طنطاوي (١٨/١٠). بتصرف.
٢) تفسير الشعراوي (٩٩٨٤/١٦). بتصرف.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة

ليتخذها الناس مجالا للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين. ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان، وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة- التي سكت القرآن عن تفصيلها فهو الموت نهاية الحياة الأرضية، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة. وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار.

ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة. وبعده تبدأ الحياة الكاملة، المبراة من النقائص الأرضية، ومن ضرورات اللحم والدم، ومن الخوف والقلق، لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان. وإنما ذلك لمن يسلك طريق الكمال، الطريق الذي رسمه المقطع الأول في السورة ألا وهو طريق المؤمنين بالله وحده .

موضع الالتفات عن الاسم إلى الفعل:

- جاء الالتفات عن الاسم في كلمة (لَمَيِّتُونَ) إلى الفعل في كلمة (تُبْعَثُونَ) وهذا التفات عن الاسم إلى الفعل، وكان بالإمكان أن يأتي السياق بالاسم فيقول (لمبعوثون) ليتوافق مع السياق السابق لكنه عدل عن ذلك من الاسم إلى الفعل لسبب بلاغي هو استحضار عظمة وجلالة وهيبة البعث وبقائه في الذهن حتى لا ينساه الناس وهو أمر حق لا محالة.

سبب الالتفات عن الاسم إلى الفعل:

- فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب على طريقة العدول وكذلك انتقال من الاسم إلى الفعل، والسر في ذلك: تذكير الناس بالبعث بعد الموت - وبخاصة المنكرين له – تذكيرهم بالموت وما بعده وذلك على وجه التعريض بالتخويف، وهذا يناسبه الخطاب، و كذلك استحضار موقفهم بين يدي خالقهم من العدم، وهو وحده من يميتهم ويبعثهم بعد موتهم. واستحضار هذا على الدوام وأن يكون هذا الاستحضار على الدوام، وهذا يناسبه المضارع الذي يدل على الدوام والاستمرار والتجدد.

ومن أغراض الإتيان بالفعل استحضار الحدث مع الزمن المفيد للاستمرار الباعث على تصوير عظمة موقف البعث وهوله وعظمته، وهو الأمر الذي لا يفي به دلالة إلا الفعل الذي يجعل القارئ في قلب الحدث مستحضرا له مشاهدا لعظمته وجلالته.

أراء العلماء في الالتفات عن الاسم إلى الفعل:

يقول الإمام الألوسي- رحمه الله - «ثم إنكم يوم القيامة عند النفخة الثانية تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب، ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقا آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على

بعثه وإعادته وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسيا منسيا مستقرا في رحم العدم كأن لم يكن شيئا، ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله - جل وعلا - أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث لم أر أني سبقت إليه، وقيل في ذلك: إنه تعالى شأنه لما ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذكر نبه على أنه سبحانه أبدع خلق الإنسان وقلبه في الأطوار حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله وبه يصح تكليفه بنحو تلك التكليفات وهو كونه حيا عاقلا سميعا بصيرا وكان ذلك مستدعيا لذكر طور يقع فيه الجزاء على ما كلفه تعالى به وهو أن يبعث يوم القيامة فنبه سبحانه عليه بقوله: ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فالمقصود الأهم بعد بيان خلقه وتأهله للتكليف بيان بعثه لكن وسط حديث الموت لأنه برزخ بين طوره الذي تأهل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بعثه فلا بد من قطعه للوصول إلى ذلك فكأنه قيل: أيها المخلوق العجيب الشأن إن ماهيتك وحقيقتك تفنى وتعدم ثم إنها بعينها من الأجزاء المتفرقة والعظام البالية والجلود المتمزقة المتلاشية تبعث وتنشر ليوم الجزاء لإثابة من أحسن فيما كلفناه به وعقاب من أساء فيه، فالقرينة الثانية وهي الجملة الدالة على البعث لم تفتقر إلى التوكيد افتقار الأولى وهي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجملة الدالة على الموت لأنها كالمقدمة لها وتوكيدها راجع إليها، إنما بولغ في القرينة الأولى لتمادي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك وأخليت الثانية لوضوح أدلتها وسطوع براهينها[1].

وقال الشيخ الشعراوي[2] « إن المتكلم هو الله، الذي يرى غفلة الناس عن الموت رغم وضوحه، لذلك أكد عليه، لذلك يقال: «ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت» فالكل يعلم الموت ويعاينه، لكن يبعده عن نفسه، ولا يتصوره في حقه.

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أن ينكرها؛ لذلك جاءت دون توكيد وجاءت بالفعل بدل الاسم: {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها؛ لذلك أطلقها إطلاقا دون مبالغة في التوكيد وللدلالة على الدوام وعلى استمرار ذكر البعث، أما من يتشكك فيه أو ينكره، فهذا يُؤكد له الكلام، ولم يقل: لمبعثون كما قال {لميتون} فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم، ولا يؤكد ما فيه إنكار[3].

****

١) تفسير الألوسي (٩/٢١٩). بتصرف.

٢) محمد متولي الشعراوي، العالم الفقيه المفسِّر، من أبرز علماء عصره، وأحد دعائم الفكر الإسلامي الحديث بمصر. ولد في مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية سنة ١٣٢٩هـ. حصل على الشهادة العالمية من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وتدرج في سلك التدريس الأزهري بمختلف المعاهد الدينية حتى أعير للمملكة العربية السعودية مدرسًا بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، عين وزيرًا للأوقاف، وكان عضوا بمجمع اللغة العربية ورابطة العالم الإسلامي، للشيخ الشعراوي أسلوب فريد في التفسير يجمع بين أصالة التفاسير القديمة ومعاصرة الواقع العلمي المبتكر. ليس للشيخ الشعراوي مؤلفات بعينها، غير أن أصحاب الأقلام ودور النشر الكبرى وهيئات علمية كثيرة أخذت أحاديثه المذاعة وطبعتها في صورة كتب. وتوفي سنة ١٤١٩هـ نقلا عن الموسوعة العربية العالمية .http://www mawsoah.net

٣) تفسير الشعراوي (١٦/٩٩٨٥). بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثاني:

الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾) [سورة المؤمنون: ٧٦].

معنى الآية الكريمة إجمالاً:

هذه الآيات تعتبر استمراراً للحملة الإنذارية والتنديدية السابقة على الكفار: لأنهم مصرون على عنادهم وجحودهم في حالتي سرائهم وضرائهم. فإذا كانوا في حالة اليسر والرغد حسبوا ذلك اختصاصا وتكريما من الله ودليلا على أنهم على حق في تقليدهم فظلوا معرضين عن الاستجابة إلى دعوة الله ورسالة رسوله. فهم إذا أصيبوا ببلاء ثم كشفه الله عنهم رحمة بهم تمادوا في طغيانهم وإعراضهم. ولقد أنزل الله بهم بلاء فكشفت التجربة عن هذه الحقيقة لأنهم لم يخضعوا لربهم وما استكانوا وما تضرعوا وما تابوا عما هم فيه وسيظلون على موقفهم[1].

- الغفلة عند الخلق الذين لا يعرفون قدر ربهم خالقهم، تعتبر صفة عامة لذلك الصنف من الناس، وهم القاسية قلوبهم، الغافلين عن ربهم ونعمه عليهم، وأغلب هذا الصنف هم المكذبين بالبعث والحساب، ومن هؤلاء المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكة.

«والاستكانة والتضرع عند مسّ الضر دليل على الرجوع إلى الله،

١) التفسير الحديث (٣٢٨/٥).

والشعور بأنه الملجأ والملاذ. والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رَقّ ولانَ، واستيقظ وتذكر واتعظ، وكانت هذه الحساسية هي الحارس الواقي من الغفلة والزلل، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء. فأما حين يسدر في غيه، ويعمَهُ في ضلاله، فهو ميؤوس منه لا يُرجَى له صلاح، وهو متروك لعذاب الآخرة، الذي سيفاجئه، فيسقط في يده، ويبلس ويحتار، ويأس من الخلاص .

هذه الآية فيها بيان لشدة تمرد الكافرين وعنادهم واستكبارهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. لكنهم إذا كشف الله الضر عنهم لجّوا، واستمروا في طغيانهم يعمهون، ويجولون في كفرهم وهم حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعون مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بالشرك وغيره.

(وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ) قيل المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، (فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) فما خضعوا ولا ذلّوا، وما تضرعوا إليه وافتقروا لله ودعوْه، بل مرّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يُرَدّ[2].

وفي قوله: (وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا

٢) تفسير السعدي (ص: ٥٥٦).

يَتَضَرَّعُونَ) في الآية استشهاد على شدة شكيمتهم في الكفر ولجاجهم على تقدير رحمته لهم بأنه أخذهم بالسيوف أولا، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وُجِدّت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرّع. والفعل استكان استفعل من الكون لأن المفتقر انتقل من كون إلى كون أو افتعل من السكون أشبعت فتحته. وما يتضرعون وليس من عادتهم التضرع وهو استشهاد على ما قبله[1].

وقيل: الأخذ كان بالأمراض والحاجة والجوع والقتل. لكنهم ما خضعوا، وما تضرعوا، وما يخشعون لله عز وجل في الشدائد تصيبهم.

لذا أخذ الله هؤلاء المشركين بالعذاب، وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ومن ثم سخط عليهم وضيق عليهم معايشهم وأجدب بلادهم، وقتل سراتهم بالسيف في بدر لكنهم لم ينقادوا لأمر ربهم ونهيه، وينيبوا إلى طاعته[2].

والخلاصة: أنه ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أخذ الكفار بالعذاب، والظاهر أنه العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب، والأمراض والشدائد، فما استكانوا لربهم وما خضعوا له، ولم يبتهلوا إليه بالدعاء متضرعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب وذلك لشدة قسوة قلوبهم، وبعدهم من الاتعاظ، ولو كانوا متصفين بما يستوجب ذلك من إصابة عذاب الله لهم، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يُفتح عليهم باب العذاب الشديد[3].

---

١) تفسير البيضاوي (٤/ ٩٣). تفسير النسفي (٤٧٦/٢). بتصرف.
٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٤٣)، تفسير الطبري (١٩/ ٦٠).
٣) أضواء البيان، الشنقيطي (٥/ ٣٤٥). تفسير المراغي (١٨/ ٤٣). بتصرف.

موضع الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

- جاء الالتفات من الفعل الماضي في قوله: (وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟) كلمتي (أخذناهم - واسْتَكَانُوا) التي بصيغة الماضي إلى قوله (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) بصيغة الفعل المضارع في كلمة (يَتَضَرَّعُونَ) وهذا التفات عن الماضي إلى المضارع، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله الماضي فيبدل بقوله يتضرعون وما تضرعوا حتى يتفق مع ما قبله (أخذناهم – واستكانوا) لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي هو إفادة استمرار عدم التضرع والانقياد لله من المشركين.

سبب الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

- جاء السياق في الآية بالتغاير بين الفعلين الماضي إلى المضارع؛ وذلك لأن استكانوا على ظاهره؛ لأنه مرتب على قوله: أخذناهم. أما الفعل المضارع (يتضرعون) فعدول عن الظاهر؛ وذلك لتوخي الاستمرار من الكفار على عدم التضرع لله والدوام على هذا العتُوّ والاستكبار، وهذا ما يدل عليه الفعل المضارع من الاستمرار والدوام.

أراء العلماء في الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال الزمخشري - رحمه الله - « وتخالَف الفعلين استكانوا ويتضرعون في الصيغة فلم يكونا ماضيين ولا مضارعين. لأن المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد[1].

١) تفسير الكشاف (١٩٨/٣).البحر المحيط في التفسير (٥٧٧/٧). بتصرف.

وقال ابن جزي الكلبي[1] وإن قيل: هلا قال: فما استكانوا وما تضرعوا، أو فما يستكينون وما يتضرعون باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال؟ فالجواب: أن ما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم، وما يتضرعون حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد فنفى الاستكانة فيما مضى، ونفى التضرع في الحال والاستقبال[2].

وقال أبو زهرة – رحمه الله - «الفاء، للإفصاح، والاستكانة معناها الانتقال من كون إلى كون، وحالٍ إلى حال، فهي افتعل من كان، أي فيما انتقلوا من الكون الذي هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذي يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان بالله ورسوله (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) أي لم ينتقلوا إلى كون الإيمان، وما اتجهوا بالضراعة الدائمة المتجددة لله تعالى المستمرة شأن المؤمنين الضارعين لربهم، وكان نفي المضارع لنفي تجدد الضراعة ودوامها في كل أحوال الشخص، لا في وقت الشدة فقط.

وقوله: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ)، أي: أخذناهم متلبسين بالعذاب وأنقذهم لكنهم مع ذلك استمروا على كفرهم، وأنهم يستمرون في غيهم حتى يجيئهم العذاب الذي لا يزول وهذا دلالة الفعل المضارع[3].

وقال ابن عاشور - رحمه الله - «والاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع مشتقة من السكون لأن الذي يخضع يقطع الحركة أمام من خضع له، فهو افتعال من السكون للدلالة على تمكن السكون وقوته، والتعبير

١) أبو القاسم: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، فقيه من العلماء بالأصول واللغة. ولد في غرناطة سنة ٦٩٣هـ. من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل في التفسير, وتقريب الوصول إلى علم الأصول, ووسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم، وهو من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب قتل في الكائنة بطريف سنة ٧٤١هـ. الأعلام للزركلي (٣٢٥/٥). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة, ابن حجر العسقلاني (٨٩/٥).

٢) تفسير ابن جزي الكلبي (٥٥/٢).

٣) زهرة التفاسير (٥١٠٢/١٠).

بالمضارع في يتضرعون لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم واستمرارهم على ذلك[1].

وقال الشيخ الخطيب: «وجاء الإخبار عمن نزل بهم البلاء، بصيغة الماضي. على حين أنه لم يكن قد وقع بعد، ولتحقق وقوعه مستقبلا، فهو من أنباء الغيب التي جاء القرآن الكريم بكثير منها ويجوز أن يكون هذا إخبارا عما كان ينزل بهم من حوائج ومجاعات، قبل البعثة النبوية، ويكون هذا الخبر عنهم، مرادا به الكشف عن جفاء طباعهم، وغلظ مشاعرهم، وأنهم لا يتأثرون بالخير أو الشر[2].

{وما يتضرعون} بالفعل المضارع أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتو والاستكبار، والغرض أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم. وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام إلا أن المراد دوام النفي لا نفي الدوام أي وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى أصلا[3].

- وعدل من الفعل الماضي (استكانوا) للمضارع (يتضرعون) لتوبيخهم على دوام قلة استكانتهم وعدم خضوعهم في وصيد المناجاة، وللدلالة على إصرارهم وملازمتهم لهذه الحالة من البعد والجفاء في باب الربوبية.

****

١) التحرير والتنوير (١٠١/١٨).
٢) التفسير القرآني للقرآن (١١٦٥/٩).
٣) صفوة التفاسير (٢٩٠/٢)، تفسير الألوسي (٢٥٦/٩).

المطلب الثالث: الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

قال تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾) [سورة المؤمنون: ٥٠].

المعنى العام للآية الكريمة:

- لما كان من ذكر من الأنبياء السابقين إلى أقوامهم وبخاصة بني إسرائيل قد ردوا من جاءهم من هؤلاء الأنبياء لأنهم جاؤوهم بما يخالف ما هم عليه من الضلال الذي كانوا عليه، وكفرهم بربهم وقالوا بلسان حالهم ومقالهم كيف نترك ما نحن عليه ووجدنا آبائنا على ذلك، وهؤلاء من البشر أمثالنا وكان الأولى - في رأي هؤلاء المكذبين لرسلهم- يقولون لابد أن يكون المرسلين من الملائكة وليسوا من البشر لذا جاءت المعجزة للمكذبين بالمسيح عيسى وأمه.

لما استبعد بني إسرائيل أن يكون الرسل بشرا، وكان بنو إسرائيل الذين أعزهم الله ونصرهم على عدوهم وأوضح لهم الطريق بالكتاب قد اتخذوا عيسى - مع كونه بشرا - إلها، اتبع ذلك ذكره تعجيبا من حال المكذبين في هذا الصعود بعد ذلك نزول في أمر من أرسلوا إليهم، وجرت على أيديهم الآيات لهدايتهم، فقال: (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً) أي بعظمتنا وقدرتنا جعلنا عيسى ابن مريم، ونسبه إليها تحقيقا لكونه لا أب له، وكونه بشرا محمولا في البطن مولودا لا يصلح لرتبة الإلهية؛ وزاد في حقيق ذلك بقوله: وأمه جعلناهما علامة وإشارة إلى ظهور الخوارق على أيديهما حتى كأنهما نفس الآية، فلا يرى

منها شيء إلا وهو آية، ولو قال: آيتين، لكان ربما ظن أنه يراد حقيقة هذا العدد، ولعل في ذلك إشارة إلى أنه تكملت به آية القدرة على إيجاد الإنسان بكل اعتبار من غير ذكر ولا أنثى. آدم عليه السلام، ومن ذكر بلا أنثى كحواء عليها السلام، ومن أنثى بلا ذكر كعيسى عليه السلام، ومن الزوجين كبقية الناس، والمراد أن بني إسرائيل - مع الكتاب الذي هو آية مسموعة والنبي الذي هو آية مرئية - لم يهتد أكثرهم.

«ولما كان أهل الغلو في عيسى وأمه عليهما - الصلاة والسلام - ربما تشبثوا من هذه العبارة بشيء، حقق بشريتهما واحتياجهما المنافي لرتبة الإلهية فقال تعالى: (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) أي بعظمتنا لما قصد ملوك البلاد الشامية إهلاكهما جعلناهما في مكان عالٍ بربوة من الأرض، وأحسن ما يكون النبات في الأماكن المرتفعة، والظاهر أن المراد بها عين شمس في بلاد مصر؛ وقيل: ليس الربى إلا بمصر والماء حين يرسل تكون الربى عليها القرى[1].

موضع الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

- جاء الالتفات من التثنية في قوله: (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ) كلمة (ابن مريم وأمه) التي بصيغة التثنية في الشخصين إلى قوله (ءَايَةً) بصيغة المفرد في كلمة (آية) وهذا التفات عن التثنية إلى المفرد، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله بصيغة التثنية فيبدل بقوله: (ءَايَةً) إلى التثنية (آيتين) حتى يتفق مع ما قبله من السياق بالمثنى بدل المفرد، لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي هو بيان أن حالهما في الإعجاز كحالة واحدة فلا حاجة أن يقال آيتين.

١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤٨/١٣).

سبب الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

- جاء السياق في الآية الكريمة بالتغاير بين اللفظين التثنية في قوله: (ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ) إلى المفرد في قوله: (ءَايَةً) ولم يراع السياق الموافقة بين اللفظين من حيث التثنية فيكون اللفظ الأخير (آيتان) بالتثنية ليتوافق مع اللفظ السابق لكنه عدل عن ذلك لسرٍّ بلاغي وهو أنهما متوافقان في حالهما فيصيران بمجموعهما كأنهما آية واحدة؛ والآية هي ولادتها إياه من غير فحل.

أراء العلماء في الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

قال الماتريدي[1]. وخص الله - عز وجل - عيسى ابن مريم - عليه السلام - وأمه بأن جعلهما آية، وجميع البشر في معنى الآية واحد؛ إذ خلقوا جميعا من نطفة، ثم حولت النطفة علقة، والعلقة مضغة، إلى آخر ما ينتهي إليه؛ فيصير إنسانا؛ فالآية والأعجوبة في خلق الإنسان من النطفة ومما ذكرنا إن لم تكن أكثر وأعظم لم تكن دون خلقه بلا أب ولا زوج وما ذكر، لكنه خصهما بذكر الآية فيهما؛ لخروجهما عن الأمر المعتاد في الخلق، والعادة الظاهرة فيهم أن يخلقوا من النطفة والأب والتزاوج والأسباب التي للتوالد والتناسل الذي تجري فيما بينهم والأسباب التي جعل للتوالد في الخلق؛ وجهما عن الأمر المعتاد والعادة الظاهرة خصهما بذكر الآية والأعجوبة في خلق البشر[2].

١) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي: من أئمة علماء الكلام. نسبته إلى ما تريد (محلة بسمرقند) من كتبه: التوحيد وأوهام المعتزلة وتأويلات القرآن في التفسير وتأويلات أهل السنة. مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (١٩/٧).

٢) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (٤٧١/٧) تحقيق: د. مجدي باسلوم, الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م. بتصرف.

وقال الزمخشري وغيره وفي قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً) حيث أفرد وقال: آية؛ لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة؛ وهي ولادتها إياه من غير فحل. أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد، وظهرت منه معجزات أخر، وأمه آية بأن ولدت من غير مَسِيسٍ من ذكر؛ فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ولو قال: (آيتين) لكان ربما ظن أنه يراد حقيقة هذا العدد، ولعل في ذلك إشارة إلى أنه تكملت به آية القدرة على إيجاد الإنسان بكل اعتبار: من غير ذكر ولا أنثى كآدم عليه السلام، ومن ذكر بلا أنثى كحواء عليها السلام، ومن أنثى بلا ذكر كعيسى عليه السلام، ومن الزوجين كبقية الناس. وفيه بيان اشتراك عيسى وأمه في كونهما آية فلا يعجب من أمر عيسى قياسا على شأن أمه، وتعظيما لقدر هذه الآية[1].

وقال الرازي «علم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لأنها حملته من غير ذكر، والأقرب أنه جعلهما آية بنفس الولادة لأنه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعا في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على أن هذا التفسير أولى وجهان: أحدهما: أنه تعالى قال: وجعلنا ابن مريم وأمه آية لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك أن نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا

١) تفسير الزمخشري(١٨٩/٣). بتصرف. تفسير البيضاوي (٨٩/٤)، نظم الدرر للبقاعي (١٤٩/١٣).

أنه آية فيه الثاني: أنه تعالى قال آية ولم يقل آيتين، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلا بها[1].

وإلى هذا ذهب أبو السعود – رحمه الله - في تفسيره فقال: « (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً) والآية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير أن يُمسّ شرف الآية. أمر واحد نسب إليهما عبرة وآية ذلك أن تكلم في المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بأنها ولدته من غير مَسيسٍ فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه وللإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه الصلاة والسلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أي جعلناه ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه هي التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب وهذا آية»[2].

****

١) تفسير الرازي (٢٣/٢٨٠). بتصرف.

٢) تفسير أبي السعود (٦/١٣٧). الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، (٦/٩٩). الناشر: دار الفكر – بيروت. سنة النشر ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م. بتصرف.

المطلب الرابع: الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

قال تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠) [سورة المؤمنون: ٩٩: ١٠٠].

المعنى العام للآية:

- لما كان أصعب وأحزن أوقات الكفار هي حضورهم ساعة الموت، لأنهم سيعرضون على ربهم الذي كفروا به، وتركوا شرعه وجعلوه وراء ظهورهم، فكان لزاما عليهم أن يروا مصيرهم المشؤوم، بسبب أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا، وإنكارهم للبعث والنشور وأنهم لن يبعثوا بعد موتهم ولن يُحاسبوا على ما قدموه، فلما رأوا عند الموت ما آل إليه مصيرهم، ورأوا بأعينهم ما أعده الله لهم من العذاب الأليم، قالوا بلسان حالهم ومقالهم يا رب ارجعني إلى الدنيا مرة أخرى لعلي أعمل صالحا فيما تركت، وأعمل لما أنا قادم عليه يوم القيامة. لكن يأتيه الرد الصاعق من الله الملك الجبار العادل - سبحانه وتعالى – الرد بلفظ كلا الذي ترتجف منه القلوب، وترتعد منه الفرائص، كلا لن ترجعوا مرة أخرى فقد أنذرناكم وأرسلنا إليكم الرسل وأنزلنا إليكم الكتب، ولكنكم ابتعدتم عنهم وكفرتم به، فالآن ليس لكم إلا ما قدمتم من أعمال خبيثة وها أنتم ترون ما كذبتموه أمامكم حاضراً، وهيهات أن يُقبل منكم هذا الكلام الذي تقولونه أنكم ترجعون مرة أخرى للحياة الدنيا.

«وإذا نظرنا لحال هؤلاء الذين يقولون رب ارجعون من حالة الفوت الذي ضيعوا فيه أعمارهم في الدنيا، لكنه الآن في وقت كشف الغطاء، عما كتب من القضاء، وآن اللقاء، وتحتم السفول أو الارتقاء، لذا أعقب ذلك بذكره تنبيها على بذل الجهد في الدعاء والتضرع للعصمة فيه فقال معلقا بقوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ) منبها بحرف الغاية على أنه سبحانه يمد في أزمانهم استدراجا والتقدير كما يرشد إليه السياق أي فلا أكون من الكافرين المطيعين للشياطين وذلك إذا جاء أجلهم، وقدم المفعول هنا حتى يذهب الوهم في فاعله كل مذهب فقال: جاء أحدهم الموت وكشف له الغطاء، وظهر له الحق، ولاحت له بوارق العذاب، ولم يبق في شيء من ذلك ارتياب (قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) وهو بذلك مخاطبا لملائكة العذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس ويقول رب ارجعون إلى الدنيا دار العمل»[1].

- ولما كان هذا الكافر في تلك الحالة من اليأس من النجاة، إلى اليأس من العمل لفوات داره مع وصوله إلى حد الغرغرة مباشرة قال: (لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ)حتى أكون على رجاء من العمل الصالح الذي سأفعله إن رجعت مرة أخرى فيما تركت من الإيمان والأعمال الصالحة؛ فهو لم يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليكون بين أهله وعشيرته الذين كانوا معه، وكان يعتز بهم، ولا يريد الرجوع ليجمع الدنيا أو ليقضي بعض شهواته وملذاته، ولكنه تمنى فقط أن يرجع للدنيا ليعمل بطاعة الله فقط.

لكن ولما كان قضاء الله قد قطع بأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد الموت،

١) نظم الدرر، البقاعي (١٨٥/١٣). حدائق الروح والريحان، الأمين الهرري (١٦١/١٩). بتصرف.

لأنه لو رجع مرة أخرى لم يعمل قال الله رادعا له ورادًّا لكلامه: (كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا)والمعنى أنه لن يكون هناك شيء من ذلك الذي يقوله، فكلامه هذا عبارة عن كلام وفقط وقد عُرف عن صاحب هذه المقالة الخداع والكذب في حياته الدنيا فهذه الكلمة كما لا حقيقة لها. (وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) وسيكون أمامهم ومن خلفهم العذاب الأليم محيط بهم في القبر وكذلك في يوم القيامة.

«لا يزال الكافر يجترح السيئات ولا يبالى بما يأتي وما يذر من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله المهين، لكنه مباشرة يندم على ما فات، ويأسف على ما فرط في جنب الله وقال: يا رب ارجعني إلى الدنيا لأعمل صالحا فيما قصرت فيه من عبادتك وحقوق خلقك.

وخلاصة ذلك إنه حين الاحتضار يعاين ما هو مقبل عليه من العذاب فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا، ليصلح ما أفسد، ويطيع فيما عصى. لكنه يأتيه الرد الصاعق بلفظ (كلا) وهي كلمة ردع وزجر. وقوله: (كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا) تحتمل معان: أحدها: الإخبار المؤكد بأن هذا الشيء يقع، وهو سيقول هذه الكلمة.

الثاني: أنها كلمة لا تغنى أكثر من أنه يقولها وفقط، ولا نفع له فيها.

الثالث: أن يكون إشارة إلى أنه لو رُدَّ لعاد لما كان عليه، والضمير في: ورائهم للكفار، والبرزخ في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يستعار لما عدا ذلك، وهو هنا: للمدة التي بين موت الإنسان وبين بعثه

هذا إجماع من المفسرين. والكلمة التي هو قائلها هي لا محالة لتسلط الحسرة عليه، والبرزخ هو حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم القيامة وهو إقناط كلي عن الرجعة إلى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة»[1].

وفي قوله تعالى: «(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) إنه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال. وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار، مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد بقوله تعالى: (كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ) كلمةٌ لا معنى لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها، إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب من رصيد! وبها ينتهي مشهد الاحتضار. وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعا. فلقد قضي الأمر، وانقطعت الصلات، وأغلقت الأبواب، وأسدلت الأستار: (وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ) فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة. إنما هم في ذلك البرزخ إلى يوم يبعثون يوم القيامة[2].

وقيل إنه يقول هذه الكلمة عندما أيقن بالموت واطلع على حقيقة

١) تفسير المراغي (١٨/٥٥). تفسير الثعالبي, الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤/ ١٦٢). الجواهر الحسان في تفسير القرآن, أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي, تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود, الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

الأمر، أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة. وكلا ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد. والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهي قوله: لعلي أعمل صالحا فيما تركت. هو قائلها لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ومن ورائهم برزخ والضمير للجماعة، أي: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى: أنهم يرجعون يوم البعث، وإنما هو إقناط كلى لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة[1].

موضع الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

- جاء الالتفات من المفرد في قوله: (جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ) في كلمة (أحدهم) التي بصيغة المفرد إلى صيغة الجمع في قوله: (قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) في كلمة (ورائهم - يبعثون) وهذا التفات عن المفرد إلى الجمع، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله بصيغة المفرد فيكون اللفظ (ورائه– يبعث) ليتفق مع ما قبله، لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي هو بيان ما آل إليه حال هذا الكافر من السوء وتفريطه في حق ربه ومن ثم بدأ يستعطف ربه فكان كلامه مع ربه في حالته هذه بطريقة التعظيم لربه والاستعطاف له والتضرع إليه لعله يرجعه للدنيا.

- وقد جاء في الآية الثانية التفات آخر من المفرد في قوله: (هُوَ قَآئِلُهَا) في كل من (قائلها) التي بصيغة الإفراد إلى صيغة الجمع في قوله: (وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) بصيغة الجمع في كل من (ورائهم

١) البحر المحيط (٥٨٤/٧). تفسير الزمخشري (٢٠٣/٣). تفسير ابن عطية (١٥٦/٤).

- يبعثون) وهذا التفات عن المفرد إلى الجمع، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله بصيغة المفرد فتكون (ورائه – يبعث) حتى يتفق مع ما قبله من السياق بالمفرد بدل من الجمع، لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي هو بيان حال جميع الكفار وكل من أنكر البعث والجزاء، فكأن السياق القرآني يعدل عن الإفراد حتى لا يتوهم بعض المنكرين أن هذا الخطاب لا يخصهم هم بل هو خاص بالكافر الذي نزلت فيه الآية، لذا عد من المفرد للجمع.

سبب الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

- جاء السياق في الآية الكريمة بالتغاير بين الألفاظ الدالة على الإفراد في كل من (أحدهم) إلى الجمع في كل من (ارجعون) ومن ثم لم يراع السياق الموافقة بين هذه اللفظين حتى يتوافق مع بعضه فيكون على الإفراد لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي وهو أن هذا الكافر الذي أنكر البعث والحساب والوقوف بين يدي ربه، الآن رأى ما صار إليه حاله السيئ وأنه لا مفر من العذاب بدأ يخاطب ربه بصفات التعظيم والجلال، ويستعطفه أن يخلي سبيله ويرجعه للدنيا حتى يستدرك ما فاته من الإيمان به والأعمال الصالحة التي كان يستحقرها؛؛ لكن هيهات هيهات.

أراء العلماء في الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

قال الشيخ الشنقيطي[1] «لا يخفى ما يسبق إلى الذهن فيه من رجوع

١) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: من علماء شنقيط (موريتانيا) . ولد بها سنة ١٣٢٥هـ. وتعلم بها. وحج (١٣٦٧) واستقر مدرسا في المدينة المنورة ثم الرياض, وأخيرا في الجامعة الإسلامية بالمدينة, وتوفي بمكة, وصلى عليه بالمسجد الحرام بإمامة الشيخ ابن باز سنة ١٣٩٣هـ. من أهم

الضمير إلى الرب، والضمير بصيغة الجمع والرب جل وعلا واحد. والجواب من ثلاثة أوجه. الأول: وهو أظهرها، أن الواو لتعظيم المخاطب. الثاني: أن قوله: (رَبِّ) استغاثة بالله تعالى، وقوله: (ٱرۡجِعُونِ) خطاب للملائكة، ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير عن ابن جريج قال: قال رسول الله لعائشة: إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان؟ فيقول: بل قدموني إلى الله، وأما الكفار فيقولون له: نرجعك، فيقول: رب ارجعون.

الوجه الثالث: وهو قول المازني، أنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني ارجعني. ولا يخلو هذا القول عندي من بُعد، والعلم عند الله تعالى[1].

وقال أبو السعود وغيره: (قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) أي ردني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعني. (لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ) من الإيمان وسائر الأعمال الصالحة، وذلك للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع غني عن الإخبار بوقوعه قطعا فضلا عن كونه مرجوّ الوقوع. وقيل فيما تركته من المال أو من الدنيا وعنه صلى الله عليه وسلم إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى الله تبارك وتعالى. وأما الكافر فيقول أرجعوني. (كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ) ردع

كتبه: أضواء البيان في تفسير القرآن، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب. الأعلام للزركلي (٦/٤٥). طبقات النسابين (ص: ١٩٨). بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ص: ١٦٤)، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، توزيع مكتبة الخراز – جدة، الطبعة : الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

عن طلب الرجعة واستبعاد لقوله رب ارجعون. والكلمة التي هو قائلها تبين مدى تسلط الحسرة عليه.

والالتفات الآخر في قوله: (وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي أمامهم والضمير لأحدهم والجمع باعتبار المعنى لأنه في حكم كلهم كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ. والبرزخ هو الشيء الحائل بينهم وبين الرجعة. بل سيبقون في قبورهم إلى يوم القيامة. وهذا دليل على الإقناط الكليّ عن الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى[1].

وقال العلّامة الألوسي: «والمراد من مجيء الموت هو ظهور إماراته أي إذا ظهرت هذه الأمارات لأحدهم فقد بدت له أحوال الآخرة، تحسرا على ما فرط في جنب الله تعالى رب ارجعون أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظم المخاطب وهو الله تعالى. والحق أن التعظيم يكون في ضمير المتكلم والمخاطب بل والغائب والاسم الظاهر. وقيل: الواو لكون الخطاب هنا للملائكة عليهم السلام والكلام على تقدير مضاف أي يا ملائكة ربي ارجعوني، وجاز أن يكون رب استغاثة به تعالى وارجعون خطاب للملائكة عليهم السلام. وجمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني. واستشكل ذلك بعضهم[2].

وقال البقاعي وغيره: «والجمع للتعظيم (قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) أي إلى الدنيا دار العمل؛ ويجوز أن يكون الجمع لله تعالى وللملائكة، أو للتعظيم على عادة في مخاطبات الأكابر لا سيما الملوك، أو لقصد تكرير

١) تفسير أبي السعود (١٥٠/٦). دراسات لأسلوب القرآن الكريم, محمد عبد الخالق عضيمة, (٧٥/٨). تصدير: محمود محمد شاكر, الناشر: دار الحديث، القاهرة. بتصرف.
٢) تفسير الألوسي (٢٦٢/٩).

الفعل للتأكيد. وعلى أن الخطاب لله تعالى فقد جمع الضمير تعظيما لله؛ لأن العرب تخاطب الواحد الجليل الشأن بلفظ الجماعة. وفيه رد على من يقول الجمع للتعظيم في غير المتكلم، إنما ورد في كلام المولدين. وقيل: الخطاب للملائكة، الذين يقبضون الأرواح، من ملك الموت[1].

وقال الفراء وابن عطية. وقوله ارجعون معناه إلى الحياة الدنيا، وجمع الضمير يتخرج على معنيين إما أن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيما على نحو إخباره تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع، فجعل الفعل كأنه للجميع وإنما دعا ربه. فهذا مما جرى على ما وصف الله به نفسه في مواضع كثيرة في القرآن. وإما أن تكون استغاث بربه أولا ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله ارجعون[2].

****

١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٨٥/١٣) تفسير الجلالين (ص: ٤٥٤). تفسير حدائق الروح والريحان (١٦١/١٩). بتصرف.

٢) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء، (٢٤١/٢) تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة: الأولى. بتصرف. تفسير ابن عطية (١٥٥/٤).

المطلب الخامس: الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٧٨].

المعنى العام للآية الكريمة:

- بعد أن ذكر الله – جل وعلا – في الآيات السابقة ما حدث من إعراض المشركين عن سماع القرآن الكريم الذي يأمرهم بما يُسعدهم في الدنيا والآخرة، وأعطاهم الله ما يمكنهم عن طريقه معرفة الأدلة التي تعلمهم بيقين كيف يصلوا لطريق الجنة، ورؤية العبر من السابقين، والتأمل في الحقائق الواضحة من الحق الذي أرسل الله به الرسل وأنزل من أجله الكتب. أردف– سبحانه – بعد ذلك بما يُشعر أصحاب العقول السليمة من الامتنان على عباده حيث أعطاهم من الحواس كالسمع والبصر وغيرهما ليتدبروا بها، ووضع لهم كيفية استعمالها فيما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان الواجب عليهم أن يستفيدوا بها، حتى يستبين لهم سبيل الرشد من طريق الغواية، لكنهم أعرضوا فلم تغن عنهم شيئا، فكانوا كالفاقدين لها، فالله هو الذي خلق فيكم السمع، لتسمعوا به الأصوات التي تخاطبون بها، وخلق لكم الأبصار حتى تشاهدوا بها الألوان والأشكال المختلفة، ورزقكم العقول لتفقهوا بها ما ينفعكم ويوصلكم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

«وخص الله هذه الثلاثة بالذكر، لأنها طريق الاستدلال الحسّي والعقلي لمعرفة الموجودات[1].

١) تفسير المراغي (١٨/٤٤). بتصرف.

«لو تدبر الإنسان في خلقه وهيئته، وما زود الله به من الحواس والجوارح، وما وهبه من الطاقات والمدارك لعرف الله، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد. فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير. إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يُعد كشفا معجزا في عالم البشر. فكيف بخلْقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ذلك التناسق الملحوظ الذي لو اختلت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال، فما استطاعت أذن أن تلتقط صوتا، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءاً. ولكنه الله وحده صاحب القدرة المدبِّرة هو وحده الذي نسق بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه، فتم هذا الاتصال. غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة: (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)، وهذا الشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، ومن ثم تمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثارُه في صنعته. ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها، يَحُسُّ بها العابد لله في كل نشاط وكل متاع . فالذي خلق لكم السمع والأبصار من المشاعر التي تحفظون بها أنفسكم من الأعادي الخارجة عنكم والأفئدة والقلوب التي تحفظون بها صدوركم وسرائركم من الأعداء الداخلة من التخييلات الباطلة والتوهمات الزائغة الزائلة المزخرفة المموهة من الرياء والرعونات وأنواع التلبيسات النافية لصفاء مشرب التوحيد كل هذا مع أنكم قليلي الشكر فما تشكرون ربكم على هذه النعم الجليلة إلا قليلا، وكيف لا

تشكرون نعمه - سبحانه - مع أنه هو الذي ذرأكم وأوجدكم من العدم وبث نسلكم ونسبكم في الأرض التي تترفهون فيها، وتتنعمون بها، ورزقكم من أنواع الطيبات[1].

فهو الذي خلق لكم السمع والأبصار وهذه الحواس جميعها لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية، وكذلك خلق لكم الأفئدة لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا، وخصها بالذكر لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها، وقدم السمع لأن أكثر العلوم إنما تنال به، ومع كل هذه النعم الجليلة إلا أن شكر البشر قليلا غير معتدٍّ به. لأن العمدة في الشكر: هو صرف تلك القوى- التي هي في أنفسها نعم باهرة- إلى ما خُلِقت له، لكنكم أنتم تنتحلون بها ضلالا عظيم. والمعنى إنكم لم تعرفوا عظيم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيئا. وذكر السمع والبصر والأفئدة هنا لعظم المنافع التي فيها، فيجب شكر خالقها ومن شكره: توحيده واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، ففي ذكرها تعديد نعمة وإقامة حجة[2].

و(وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ) هي مراكز العقول، كأن القرآن يقول لهؤلاء المكذبين أعطيناكم القلوب والعقول فكنتم بها أعلى من بقية الحيوانات، وهي جمع فؤاد، وهو القلب لتوقده وتحرقه، من التفؤد وهو التحرق، وعبر به هنا لأن السياق للاتعاظ والاعتبار، وجمعه جمع القلة إشارة إلى عزة من هو بهذه الصفة، ولعله جمع الأبصار كذلك لاحتمالها للبصيرة[3].

١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٥٧٤/١). بتصرف.
٢) البحر المديد، ابن عجيبة (٣/ ٥٩٢). تفسير النسفي (٢/ ٤٧٧). تفسير ابن جزي الكلبي (٥٥/٢).
٣) نظم الدرر، البقاعي (١٧٣/١٣). تفسير ابن كثير (٤٨٧/٥). بتصرف.

موضع التفات عن المفرد إلى الجمع:

- جاء الالتفات من المفرد في قوله: (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ) في كلمة (السمع) التي بصيغة المفرد إلى صيغة الجمع في قوله: (وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ) في كلمة (الأبصار - الأفئدة) وهذا التفات عن المفرد إلى الجمع، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله بصيغة المفرد فيكون اللفظ (البصر – الفؤاد) حتى يتفق مع ما قبله من السياق بالمفرد بدل من الجمع، لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي هو الامتنان من الله على عباده بهذه النعم التي لا تحصى في البصر والعقل والتفكر مما يدعُ صاحبها إلى الشكر والحمد والسمع، مصدر يراد به الحالة التي يكون عليها الإنسان في بدايته، والأبصار والأفئدة يراد بها المرئيات والمعقولات.

سبب الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

- جاء السياق في الآية الكريمة بالتغاير بين الألفاظ الدالة على الإفراد في كلمة (السمع) إلى الجمع في كل من (الأبصار - الأفئدة) والعدول عن ذلك لسرٍ بلاغي هو بيان النعم التي لا تحصى في البصر والعقل والتفكر فيما أعطاه الله له من النعم الكثيرة التي يراها وفي هذا دعوة لصاحبها إلى الشكر والحمد والسمع.

أراء العلماء في الالتفات عن المفرد إلى الجمع:

يقول الألوسي - رحمه الله - «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار لتتحسّسوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية والأفئدة لتتفكروا بها في تلك الآيات وتستدلوا بها على خالقها - سبحانه - إلى غير ذلك من المنافع،

وقدم السمع لكثرة منافعه، وأفرد لأنه مصدر في الأصل ولم يجمعه الفصحاء في الأكثر، وقيل: أفرد لأنه يدرك به نوع واحد من المدركات وهو الأصوات بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات. وفي الآية إشارة إلى الدليل الحسي والعقلي، (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) أي شكرا قليلا تشكرون تلك النعم الجليلة. لأن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت هي له. فنصب قليلا على أنه صفة مصدر محذوف، والقلة على ظاهرها بناء على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين، وجوز أن تكون بمعنى النفي بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات، وقيل: هو للمؤمنين، والأولى عندي للمشركين خاصة مع جواز كون القلة على ظاهرها كما لا يخفى على المتدبر وما علا سائر الأقوال مزيدة للتأكيد[1].

وقال البقاعي - رحمه الله - « (وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ) ولعله جمع الأبصار لأن التفاوت فيها أكثر من التفاوت في السمع. {والأفئدة} لأنها هي مراكز العقول، فيها الإنسان أعلى من بقية المخلوقات، وهي جمع فؤاد، وهو القلب لتوقده وتحرقه، من التفؤد وهو التحرق، وعبر به هنا لأن السياق للاتعاظ والاعتبار، وجمعه جمع القلة إشارة إلى عزة من هو بهذه الصفة، ولعله جمع الأبصار كذلك لاحتمالها للبصيرة. ولما صور لهم هذا النعم، وهي بحيث لا يشك غافل في أنه لا مثل لها، وأنه لو تصور أن يعطي شيئا منها آدمي لم يقدر على مكافأته، حسُن تبكيتهم لكفرهم بالمنعم بها فقال: (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) لمن أولاكم هذه النعم

١) تفسير الألوسي (٩/٢٥٧).

التي لا مثل لها، ولا يقدر غيره على شيء منها، مع ادعائكم أنكم أشكر الناس لمن أسدى إليكم أقل ما يكون من النعم التي يقدر على مثلها كل أحد، فكنتم بذلك أنزل من الحيوانات العجم صما بكما عميا[1].

وقال ابن عاشور: «هنا جاء ضمير الجلالة مسندا واسم الموصول مسندا إليه لأنهم علموا أن منشئاً أنشأ لهم السمع والأبصار، والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات، أو لجميع الناس، أو للمسلمين، والمقصود منه التعريض بالمشركين. وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد أصحابها. وأما إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأن أصل السمع أنه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلقات فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفرد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات[2].

****

١) نظم الدرر, البقاعي (١٧٢/١٣). بتصرف.
٢) التحرير والتنوير (١٠٤/١٨).

المطلب السادس:

الالتفات عن المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٦٦].

معنى الآية إجمالا:

- بعد أن ذكر ربنا - جل وعلا – سماحة دينه الذي ارتضاه لعباد، وبين أنه دين اليسر لا التعسير على عباده، فهو – سبحانه وتعالى - لا يكلف النفوس إلا ما تطيق، وأن كل ما يفعله العبد إنما هو محفوظ ومكتوب في كتاب لا يضيع منه شيئا ولو مثقال ذرة، ولا يزاد عليه فيه شيء بل سيجد الإنسان ما عملته يداه.

«أردف هذا كله بيان أن المشركين في غفلة عن هذا الذي بين في القرآن، ولهم أعمال سوء أخرى من فنون الكفر والمعاصي، كطعنهم في القرآن واستهزائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وإيذائهم للمؤمنين، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة جأروا واستغاثوا، فقلنا لهم لا فائدة فيما تعملون، فقد جاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عنها واتخذتموها هزوا»[1].

وهكذا لما بين الله أن المترفين من الكفار إذا أخذهم ربهم بالعذاب، ضجوا وصاحوا واستغاثوا، وبين أنهم لا يغاثون، بين سبب ذلك بقوله: قد كانت آياتي، أي التي أرسلت بها رسلي تتلى عليكم تقرأ عليكم واضحة مفصلة، فكنتم على أعقابكم تنكصون وترجعون عنها القهقرى. وهكذا يقول الله لهم كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تلقى عليكم

١) تفسير المراغي (٣٧/١٨). بتصرف.

آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية، وتثبت لكم صدق الرسول بالمعجزات، وتحمل لكم منهج الله في الآيات حاملة الأحكام، ولكنكم عميتم عن ذلك كله، وذلك لأنهم عموا عن أسباب الهداية، فصاروا يتخبطون في متاهات الحياة على غير هدى، كمن يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميه، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم[1].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ بعد أن أنزلنا عليكم القرآن وأرسلنا إليكم الرسول لكنكم تتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه، أو مكروه تجانبونه، مستكبرين عن الإذعان للحق. ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمركم، حيث تتناولون الرسول- صلى الله عليه وسلم- وما جاء به بكلمات السوء. ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم وهم يتحلقون الأصنام في سامرهم بالكعبة. فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه وهم يجأرون طالبين الغوث، فيذكرهم بسمرهم الفاحش، وهجرهم القبيح. وكأنما هو واقع اللحظة، وهم يشهدونه ويعيشون فيه! وذلك على طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود. والمشركون في تهجمهم على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وعلى القرآن في نواديهم وفي سمرهم يمثلون الكبرياء الجاهلة، التي لا تدرك قيمة الحق لأنها مطموسة البصيرة عمياء، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام. ومثل هؤلاء في كل زمان .

١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن, الشنقيطي (٣٣٨/٥). تفسير الشعراوي (١٠٠٨١/١٦). بتصرف.

« (قَدْ كَانَتْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ)، المعنى: كان القرآن يُقرأ ويُعرض عليكم، فكنتم على أعقابكم تنكصون، أي ترجعون إلى الشرك وتميلون إليه. مستكبرين به، متعظمين على الناس به، ويقال تنكصون أي تقيمون عليه. ترجعون القهقرى والنكوص أن يرجع القهقرى وهو أقبح مشيه لأنه لا يرى ما وراءه»[1].

وقال البقاعي: «لما كانت عظمتها التي استحقت بها الإضافة إليه تكفي في الحث على الإيمان بمجرد سماعها، لذلك بُنيَ للمفعول في قوله: (قَدْ كَانَتْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ) أي كانت هذه الآيات وهي أجلى الأشياء، تتلى عليكم من أوليائي وهم الهداة النصحاء لكنكم كنتم دائما على أعقابكم عند تلاوة هذه الآيات تنكصون وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض، فضلا عن تصديقها والعمل بها، وترجعون القهقرى وهذا الرجوع إما حسا أو معنى، لأن الماشي كذلك لا ينظر ما وراءه، وفي هذا دلالة على أن الرجوع فيه كِبْر وبطَر فهو بالهوينا. والنكوص: الرجوع القهقرى، وهي أقبح المشيه لأنه لا يرى ما وراءه[2].

موضع الالتفات عن المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم:

- جاء الالتفات عن المبني للمجهول في قوله: (قَدْ كَانَتْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) في كلمة (تُتلى عليكم) التي بصيغة المبني للمجهول. إلى صيغة البناء للمعلوم في قوله: (فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ) في

١) تفسير السمرقندي (٤٨٥/٢). تفسير النسفي (٤٧٤/٢).
٢) نظم الدرر، البقاعي (١٦٣/١٣). البحر المديد ابن عجيبة (٥٨٦/٣). بتصرف.

كلمة (كنتم – أعقابكم - تنكصون). وهذا التفات عن المبني للمجهول إلى صيغة البناء للمعلوم، وكان من الممكن أن يكون السياق القرآني كله بصيغة البناء للمعلوم فيكون اللفظ (لكنكم نكصتم على عقبكم) ليتفق مع ما قبله من السياق، لكنه عدل عن ذلك لسرٍ بلاغي ليشمل جميع المكذبين بالآيات التي أُرسلت إليهم، كما كذبوا بالعذاب الذي حذرتهم منه الرسل، ولبيان أن جميعهم قد آتتهم الآيات كلها ولم تكن لهم حجج ولا موانع.

سبب الالتفات عن المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم:

- جاء الالتفات في الآية الكريمة عن المبني للمجهول في قوله: (قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) في لفظة (تُتلى عليكم) التي جاءت بصيغة المبني للمجهول. وعدل عنه إلى البناء للمعلوم في قوله: (فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ) لسرٍ بلاغي هو أن هذا الكلام فيه شمول لجميع المكذبين بالرسل وبالآيات التي أرسل بها الرسل، كما كذبوا أيضا بالعذاب وبيان أن جميعهم قد آتتهم الآيات كلها ولم تقم لهم حجج ولا موانع.

أراء العلماء في الالتفات عن المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم:

قال البقاعي: «جاء السياق حتى يشمل جميع المكذبين بالعذاب وبيان أن جميعهم قد آتتهم الآيات كلها ولم تقم لهم حجج ولا موانع. وقَولُه (قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) لَمَّا كانتْ عَظمةُ الآياتِ -الَّتي استحَقَّتْ بها الإضافة إلى الله تعالى- تَكْفي في الحثِّ على الإيمانِ بمُجرَّدِ سَماعِها؛

بُنِيَ للمَفعولِ قولُه (تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ)[1].

وقال ابن عاشور وغيره «وقد أكد الله سبحانه وتعال الآية بـ (قد) الدالة على التحقيق و (كانت) تدل على استمرار التلاوة، ولكن جميع المكذبين ما كانوا ليتبعونها، ويتدبرونها، ويتعرفون مراميها وغايتها، معتبرين بعبرها، متأولين مآلها، بل إنهم يستمعون بآذانهم، وقلوبهم لاهية، وعقولهم معرضة، ولذا قال تعالى لهم. (فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ) وهذا التعبير فيه تصوير للإعراض حتى يظهر حسيا، كيف كان إعراضهم عن الحق وينكصون عنه، ويرجعون وراءهم، ووجوههم كأنها مقبلة، فهم يرجعون القهقرى، بأدبارهم، ويسيرون إلى الوراء بأعقابهم، وذكر فعل (كنتم)؛ للدلالة على أن ذلك شأنهم. وذكر المضارع تنكصون؛ للدلالة على التكرر منهم، فذلك خلق منهم معتادون عليه لذا قال لهم قد كانت آياتي تتلى عليكم، وهذا استئناف، والخبر مستعمل في التنديم والتلهيف. وإنما لم تعطف الجملة على جملة إنكم منا لا تنصرون لقصد إفادة معنى بها غير التعليل إذ لا كبير فائدة في الجمع بين علتين»[2].

****

١) نظم الدرر للبقاعي (١٦٣/١٣). بتصرف.
٢) بتصرف: التحرير والتنوير (٨٥/١٨). زهرة التفاسير (٥٠٩٢/١٠).

الفصل الثالث
الالتفات في سورة النور

المطلب الأول: السورة وآياتها ومكيتها وترتيبها:

- سورة النور ليس لها اسم غير هذا الاسم (النور) قال ابن عاشور «وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه هذه التسمية أن فيها آية (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) [النور: 35]»[1]. وبهذا تكون هذه التسمية لهذه السورة الكريمة إنما هي من باب تسمية الشيء بما ورد فيه.

وقيل: سميت سورة النور لتنويرها طريق الحياة الاجتماعية للناس، ببيان الآداب والفضائل، وتشريع الأحكام والقواعد، ولتضمنها الآية المشرقة وهي قوله تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [35]، أي: منورهما، فبنوره أضاءت السموات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم»[2].

أما عن عدد آيات السورة ومكان نزولها:

فقد اختلف أهل العلم: في عدد آياتها فقيل: آياتها ستون وآيتان في المدنيين والمكي، وأربع في عدد الباقين[3].

وهي مدنية وهي أربع وستون آية، وألف وثلاثمائة وست عشرة كلمة، وخمسة آلاف وستمائة وثمانون حرفا[4].

١) التحرير والتنوير (١٣٩/١٨). بتصرف.

٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣٠٩/٢). بتصرف.

٣) تفسير ابن عطية (١٦٠/٤)، تفسير البيضاوي(٩٨/٤). اللباب في علوم الكتاب, سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي (٢٧٤/١٤), تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض, الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان, الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٤) تفسير النيسابوري «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» نظام الدين الحسن بن محمد القمي (١٤٠/٥). تحقيق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى- ١٤١٦هـ. التفسير القرآني للقرآن (١١٩٧/٩). بتصرف.

أما عن ترتيب السورة وسبب نزولها:

جاءت سورة النور في ترتيب المصحف بعد سورة المؤمنون وقبل سورة الفرقان وأما عن ترتيب النزول فقد نزلت قبل سورة الحج وبعد سورة الحشر[1].

وقيل غير ذلك بمعنى أن «سورة النور» نزلت بعد «سورة المنافقون» لتشابه موضوعات السورتين. «فالأقوال التي حكتها بعض آيات السورة صدرت من زعيم المنافقين أثناء غزوة المريسيع التي أثير فيها حديث الإفك ضد أم المؤمنين عائشة الذي تضمنت سورة النور الإشارة إليه حيث يبدو من ذلك صحة رواية ترتيب نزول السورة بعد سورة النور. وفي سورة النور مقاطع عديدة فيها حملات تنديدية على المنافقين. وصور من مواقفهم على ما مر شرحه فيها. وفي هذه السورة حملة أخرى فيها مواقف أخرى.

حيث يمكن أن يكون في هذا قرينة أخرى على صحة رواية نزول هذه السورة بعد سورة النور. على أن هناك ما يحسن التنبيه عليه أيضا. فالروايات تذكر أن وقعة المريسيع كانت قبل وقعة الأحزاب أو الخندق التي أشير إليها في سورة الأحزاب. مع أن الروايات تذكر أن سورة الأحزاب في الترتيب سابقة لسورتي النور والمنافقون.

فإما أن يكون في روايات تواريخ الوقائع الجهادية النبوية شيء من الخطأ وإما أن تكون هذه السورة نزلت قبل سورة الأحزاب. وما أوردناه في مقدمة سورة النور يؤيد احتمال أن تكون هذه السورة أيضا قد نزلت قبل سورة الأحزاب. وتظل قوة قرينة نزول سورة (المنافقون) بعد سورة النور على كل حال قائمة»[2].

١) تفسير ابن جزي (٥٩/٢). بيان المعاني, عبد القادر بن ملّا (١٥٦/٦). التفسير الحديث (٣٥٣/٨).
٢) التفسير الحديث, دروزة (٤٥٧/٨). بتصرف.

يقول الأستاذ محمد دروزة[1]. «وترتيب السورة في المصحف الذي اعتمدناه يأتي بعد سورة الحشر. ولما كنا رجحنا نزول سورة الحشر قبل سورة الأحزاب وقدمناها عليها فقد صار ترتيبها بعد سورة البينة مباشرة على أننا نقول مع ذلك كله إنه ليس هناك قرينة قوية تسمح بترجيح كون أي فصل من فصول السيرة نزل بعد وقعة الخندق أو الأحزاب. وإن هذا قد يسيغ احتمال أن تكون فصول السيرة كلها نزلت قبل سورة الأحزاب وفي ظروف وقعة المريسيع وبني المصطلق وبعدها أيضا»[2].

- ومن خلال موضوعات السورتين «سورة النور وسورة المنافقون « فإن سورة النور نزلت قبل سورة الحج ولكنها نزلت بعد «سورة المنافقون» وذلك للتوافق بينهما في موضوع الآيات التي تتحدث عن المنافقين وما فعلوه مع النبي – صلى الله عليه وسلم – سواء من حديث الإفك الذي تولى كِبرَه عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومن معه من منافقي المدينة، حيث أن المنافقين كانوا قد تحدثوا عن النبي وصحابته من المهاجرين بحضور أحد صغار الصحابة وقالوا إن المهاجرين قد شاركوهم في المال والزروع وأنهم سبب ضيق عيشهم في المدينة. وموضوع هذه الآيات في سورة النور يتحدث عن مثل هذا فناسب ذلك نزول السورة الكريمة بعد سورة المنافقين.

---

١) محمد عزة بن عبد الهادي دروزة ولد في مدينة نابلس بفلسطين ١٣٠٥هـ. ونشأ في أسرة كريمة من قبيلة «الفريحات»، وحصل على الشهادة الثانوية ولم تمكنه ظروف أسرته المادية من استكمال دراسته: مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي فلسطيني، كان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن. وهو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي وأحد واضعي الدستور السوري الأول. ترك دروزة أكثر من خمسين كتابًا في علوم شتى تتعلق بالعروبة والإسلام والتاريخ العام، من أهمها: التفسير الحديث، التزم فيه تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب نزول السور. والدستور القرآني والسنة النبوية في شئون الحياة، وتاريخ الجنس العربي. وتوفي سنة ١٤٠٤هـ.

٢) التفسير الحديث، دروزة (٣٥٣/٨). بتصرف.

المطلب الثاني:

علاقة سورة النور بسورة المؤمنون وسبب نزولها:

- أما عن علاقة سورة النور بسورة المؤمنين قبلها أن الله – جلّ في علاه – كان الحديث عن صفات المؤمنين القائمين على شرع الله حقاً الذين يستحقون - بفضل الله ورحمته – الفردوس الأعلى ذكر منهم المحافظين على فروجهم في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ) [سورة المؤمنون: ٥]. ناسب هنا في سورة النور ذكر ماهية هذه الأحكام وعقوبة من لم يحفظ فرجه، فذكر عقوبة الزانية والزاني، وكذلك كل ما اتصل بذلك والنهي عن كل ما يوصل إلى جريمة الزنى فأمر – سبحانه – في هذه السورة بغض البصر، كما أمر فيها بما يستطيع الإنسان حفظ فرجه وهو النكاح وهو أولى ما يكون به حفظًا للفروج، كما أمر من لم يستطع النكاح بالعفّة وحفظ الفرج، ولما كان الحديث في سورة المؤمنين قبلها عن حفظ اللسان وما يتعلق بذلك كاللغو والكلام في أعراض الناس من الافتراء عليهم والكلام فيهم بما ليس فيهم. ناسب هنا في سورة النور أن يذكر بعض جرائم اللسان الذي لم يحفظه صاحبه وأطلق له العنان في الخلق من قذف وإفك وعقوبة ذلك. فكان حدّ القذف واللِّعان وذكر قصة الإفك التي برَّأ الله فيها السيدة عائشة في آيات سورة النور.

وقال الألوسي والسيوطي - رحمها الله - «ووجه اتصال سورة النور بسورة المؤمنين قبلها. أنه سبحانه لما قال فيها (وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ

حَٰفِظُونَ) ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنا والاستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر وأمر فيها بالإنكاح حفظا للفروج وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا»[1].

أما عن سبب نزولها فقد تنوعت أسباب نزول الآيات في سورة النور، ومن بين هذه الأسباب: الآية الثالثة من سورة النور (ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) [النور: 3]. فقد قال بعض المفسرين: قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن، وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن، فاستأذنوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك.

****

١) تفسير الألوسي (٢٧٣/٩). أسرار ترتيب القرآن, للسيوطي(ص: ١١٢).

المطلب الثالث: حديث السورة إجمالا:

- وهدف سورة النور هو تمسك الناس بشرع الله الذي هو نور المجتمعات. فهي سورة مدنية تهتم بالآداب الاجتماعية عامة وآداب البيوت خاصة.

فالسورة تبدأ بقوله تعالى (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [سورة النور: ١]. وهي آية شديدة جداً ففيها تنبيه للمسلمين لأن السورة فيها أحكام وآداب هي قوام المجتمع الإسلامي القويم.

ثم تنتقل الآيات إلى عقوبة الزناة، وبيان أن الأصل في دين الإسلام الرأفة والرحمة في غالبه، أما في أحوال جريمة الزنى فالأمر يحتاج إلى الشدة والقسوة وإلا فسد المجتمع جرّاء التساهل في تطبيق شرع الله وحماية حدوده.

وقد نزلت فيها آيات تبرئة السيدة عائشة -رضي الله عنها- بعد حادثة الإفك في قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾) [سورة النور: ١١]. وكل الآيات التي سبقتها إنما كانت مقدمة لتبرئتها. ثم يأتي التعقيب بعدها فيها توجيه لجميع المسلمين بإحسان الظنّ بإخوانهم من المسلمين، وأن ينأوا بأنفسهم عن سوء الظن بالمؤمنين، كما شددت السورة على أهمية إظهار البيّنة عند كلامهم في الآخرين.

ثم يأتي الوعظ الإلهي في السورة بشكل عام وهو حماية أعراض الناس جميعا حتى وإن كانوا غير مسلمين، فهي بحقّ سورة الآداب الاجتماعية.
ثم يأتي حديث السورة في الضمانات الأساسية والهامة لحماية المجتمع.
فبدأ بالأهم والذي يستطيعه جميع أفراد المجتمع ولابد منه لحماية الجميع هذا الأمر الهام هو الاستئذان في الدخول على الناس بيوتهم، وليس هذا خاص بالأجانب وفقط بل حتى أهل البيت سواء أكانوا أطفال أو خدم لكنهم في ساعات الراحة التي قد يكون الأب والأم في خلوتهم وراحتهم، فبين أن من آداب الإسلام أن لا يدخل الأبناء على والديهم بدون استئذان. كما بينت أهم ضمانات المجتمع وهو غضّ البصر وحفظ الفرج وهذا توجيه للرجال والنساء معاً فهم جميعاً مطالبون بغض البصر. لكن السورة خصت المسلمات بالحجاب، كما أمرت بتسهيل الزواج للشباب والفتيات، وهذا أفضل ما يحمي المجتمع.
كما بينت السورة حكم وجرم وعقوبة إشاعة الفواحش، فلقد لعن الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة أو يرمون المحصنات وحذرهم من عذابه في الدنيا والآخرة.
قال الزحيلي - رحمه الله - حرص الإسلام من أجل طهر المجتمع ونقائه، وقوته وبقائه على إشاعة الفضيلة، ومحاربة المنكر والرذيلة، وصيانة العلاقات الإنسانية من المعكرات والأمراض، ووضع حد ونظام متين لمجتمع يحيا حياة طيبة، وجيل نظيف خالٍ من الشوائب، لذا حرم الإسلام الفواحش، وحارب كل اعتداء على الأعراض والأخلاق والأنساب، ووفر الحرية الكريمة والحياة السوية للناس جميعا.
فتحدثت السورة عن باقة من الآداب الاجتماعية في الحياة الخاصة

والعامة، وهي الاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وتزويج الأيامى من الرجال والنساء، والاستعفاف لمن لم يجد مؤن الزواج، من أجل تحقيق الاستقامة على شريعة الله، وصون الأسرة المسلمة، ورعاية حال الشباب والفتيات، ومزية بيوت الله وهي المساجد، وعدم جدوى أعمال الكفار وتشبيهها بالسراب الخادع أو ظلمات البحار. وأعقب ذلك تنبيه الناس إلى أدلة وجود الله ووحدانيته في صفحة الكون الأعلى والأسفل من تقليب الليل والنهار وإنزال المطر وخلق السموات والأرض، وخضوع جميع الكائنات الحية لله - عز وجل -، وخلق الدواب ذات الأنواع العجيبة. ثم عادت الآيات لبيان حكم استئذان الموالي والأطفال في البيوت في أوقات ثلاثة، وحكم رفع الحرج عن ذوي الأعذار في الجهاد، وعن الأقارب والأصدقاء في الأكل من بيوت أقاربهم بلا إذن، واستئذان المؤمنين الرسول - صلّى الله عليه وسلم - عند الانصراف، وتفويضه بالإذن لمن شاء، وتعظيم مجلسه ومناداته بأدب جم وحياء وتبجيل يليق به وبرسالته[1].

«.. ذكر فيها النور بلفظه متصلا بذات الله، كما ذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة. وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية، تنير القلب، وتنير الحياة ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير» .

****

١) التفسير الوسيط للزحيلي (١٧٢٧/٢). تفسير الماتريدي (٥٠٤/٧). بتصرف.

المبحث الأول

الالتفات في الضمائر في سورة النور

المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النور: ٢٢].

المعنى العام للآية:

- نهى الله عباده في هذه الآية كل الذين وسع الله عليهم في الرزق المادي والفضل الذي أعطاهم الله إياه دون غيرهم، نهاهم أن يقسموا إلا ينفقوا على المحتاجين الفقراء والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، سواء ذوي القربى منهم أو حتى غير الأقرباء، وتحثهم على الصفح والعفو عمن أخطأ في حقهم، ومن ثم تسألهم سؤال يدل على حثهم وتحريضهم على الإنفاق وذلك إذا أحبوا أن يغفر الله لهم ويعفو عنهم. وتنبههم إلى هذا بتذييل الآية الكريمة بذكر صفتي المغفرة والرحمة وتهيب بهم إلى التخلق بهاتين الصفتين الحميدتين.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر- رضي الله عنه - بعد نزول القرآن ببراءة الصِّدّيقة عائشة - رضي الله عنها -. وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا في حادثة الإفك، ومسطح قريب لأبي بكر الصديق، وهو من فقراء المهاجرين. وكان أبو بكر- رضي الله عنه- يُنفق عليه. فآلى على نفسه لا ينفع مسطحا بنافعة أبدا.

لكن هذه الآية تُذكّر أبا بكر، وتذكر المؤمنين، بأنهم يحبون من الله أن يغفر لهم.

فليأخذوا أنفسهم أيضا بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه، حتى وإن كانوا قد أخطئوا وأساؤوا.. وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله. أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق- رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسّه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه. فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي في قوله تعالى: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة.

وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله. فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبداً. وذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة أبدا. بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبدا نظيفا طاهرا زكيا مشرقا بالنور، ذلك الغفران الذي يُذكّر الله المؤمنين به .

ومقصود الآية ومغزاها تذكير للمؤمنين أصحاب المال والسِّعة فتقول الآية الكريمة: ولا يحلف أهل الفضل في الدين والسَّعَة في المال على ترك صلة أقربائهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين، ومنعهم النفقة؛ بسبب ذنب فعلوه، وجُرمٍ ارتكبوه، ولْيتجاوزوا عن إساءتهم، ولا يعاقبوهم. ألا تحبون أن يتجاوز الله عنكم؟ إذن فتجاوزوا عنهم، فالله غفور لعباده، رحيم بهم. وفي هذا الحثُّ على العفو والصفح، ولو قوبل بالإساءة.

وفي الآية وبخاصة في أسلوبها المطلق الذي جاءت به، تلقين جليل عام الشمول والاستمرار بوجوب تغليب عاطفة الرأفة، والجنوح إلى العفو والصفح وكظم الغيظ، ومعونة عن المحتاج إليها إذا ما بدا منه بعض الهفوات والتصرفات الشاذة. فالله لا يمنع رحمته ويقفل باب غفرانه عن أحد، وفي هذه لعباده الأسوة الحسنة[1].

موضع الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ) بصيغة الغيبة إلى قوله تعالى: (أَلَا تُحِبُّونَ) بصيغة الخطاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ألا يحبون) ليتوافق مع قوله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ) لكن السياق القرآني البليغ عدل عن ذلك للمبالغة في دعوة المسلمين وأصحاب السِّعة والفضل، إلى التحلّي بصفة الرأفة والمغفرة بعباده المحتاجين حتى وإن أخطئوا وأساؤوا لهم، ليغفر الله لهم ويعفو عنهم.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو الترغيب الشديد في العفو عن المخطئين والصفح عنهم، وبيان أن العفو والمغفرة من الله تنتظر كل من عفا وصفح عن الآخرين لذا قال الله لهم بالاستفهام على سبيل الترغيب لهم في فعل الخير، والإنكار على من لم يعفو ويصفح. ألا تحبون - يا أصحاب الفضل والسِّعة - أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة فعليكم إظهار العفو والصفح فالله غفور لذنوب عباده رحيم بهم.

---

١) تفسير النسفي (٤٩٦/٢). تفسير حدائق الروح والريحان (٢٦٦/١٩). بتصرف.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات:

قال الأستاذ عبد العظيم المطعني «وعدل عن الغيبة إلى الخطاب مبالغة في الترغيب في المغفرة واستمالة النفوس نحوها كي يتحلوا بأسبابها»[1].

وقال الإمام الشوكاني- رحمه الله - « وجاء بتاء الخطاب على الالتفات. ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال: وليعفوا عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم وجنايتهم التي اقترفوها، والمراد: محو الذنب، وليصفحوا بالإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته. ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال: ألا تحبون أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم والله غفور رحيم أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم»[2].

وقرئ بالفوقية وذلك ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال: (ألا تحبون) وذلك بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم[3].

وقال الإمام الألوسي «ألا تحبون أن يغفر الله لكم أي بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم، وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل: ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته»[4].

وقال الإمام ابن عاشور «والاستفهام في قوله: ألا تحبون إنكاري

١) التفسير البلاغي للاستفهام، عبد العظيم المطعني (٣٥/٣). بتصرف.
٢) فتح القدير للشوكاني (٢٠/٤). بتصرف.
٣) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٩٠/٩).
٤) تفسير الألوسي (٣٢١/٩). بتصرف.

مستعمل في التحضيض على السعي فيما به المغفرة وذلك العفو والصفح في قوله: وليعفوا وليصفحوا. وفيه إشعار بأنه قد تعارض عن أبي بكر سبب المعروف وسبب البر في اليمين وتجهم الحنث وأنه أخذ بجانب البر في يمينه وترك جانب ما يفوته من ثواب الإنفاق ومواساة القرابة وصلة الرحم وكأنه قدم جانب التأثم على جانب طلب الثواب فنبهه الله على أنه يأخذ بترجيح جانب المعروف لأن لليمين مخرجا وهو الكفارة.

ألا تحبون أن يغفر الله لكم زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه وتنبيها على الأمر بالتخلق بصفات الله تعالى.

ويورد الله هذا الإخبار بأسلوب يتخلله التفات الغيبة في قوله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ)إلى الخطاب في قوله تعالى: (أَلَا تُحِبُّونَ) بتاء الخطاب على الالتفات. والسر في هذا الالتفات هو إظهار العفو وقبول العذر. قال بعض المفسرين:» وفيه ترغيب عظيم في العفو والمسامحة للمسيء كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته»[1].

- وبهذا يتبين بوضوح أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب جاء به السياق القرآني لبيان عظمة فعل الخير والعفو الصفح عن الإساءة والرجوع للحق والشرع سبب عظيم في مغفرة الله ورحمته بعباده وهذا ما يقتضيه الالتفات إلى الخطاب.

****

١) التحرير والتنوير (١٨٩/١٨). تفسير أبو السعود (١٦٥/٦). بتصرف.

المطلب الثاني: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى) [سورة النور 53 : 54].

المعنى العام للآية:

- يبين الله في هذه الآيات كذب المنافقين مع أنهم حلفوا بالله وبأغلظ الأيمان بأنهم سيخرجون مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في عمل يريده ولو محاربة أي قبيلة من قبائل العرب أو غيرها، وأنهم أرادوا ذلك فعلاً وبذلوا في هذا مجهودهم، وبلغوا في هذا أقصى ما في وسعهم ليكونوا مع النبي في خروجه لمحاربة الكافرين. وقد بالغوا في حلفهم وأقسموا بأيمانهم لئن أمرتهم يا رسول الله ليخرجن أي لئن أمرتنا بالخروج إلى الغزو لغزونا معك، ولو أمرتنا بالخروج من ديارنا لخرجنا دون أن نفعل أي شيء يغضبك. فيأتيهم الرد من الله تعالى قل لهم يا محمد، لا تحلفوا ولا تقسموا فأنتم كاذبين والكذب معصية كبيرة، وعليكم بطاعة معروفة أفضل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة، وإن الله تعالى الذي يطلب منكم هذا أعلم بكم وبما تخفونه في قلوبكم. فلا تتعبوا أنفسكم بالأيمان التي تقسمون بها بأفواهكم ولكن قلوبكم على خلافها فالله سبحانه خبير بكل ما تعملونه ويعلم ما في ضمائركم ولا

يخفى عليه شيء من سرائركم وهو فاضحكم لا محالة وسيجازيكم على هذا النفاق.

«وأقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان الموثقة بأشد وسائل التوثيق، بأنهم متى أمرهم الرسول - صلّى الله عليه وسلم - بالخروج معه للجهاد ليخرجن سراعا تلبية لأمره. وهنا يأمر الله- تعالى- نبيه - صلّى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم رداً كله تهكم وسخرية بهم، بسبب كذبهم فيقول: (قُل لَّا تُقۡسِمُواْ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ) أي: قل لهم- أيها الرسول الكريم - على سبيل السخرية والزجر، لا تقسموا على ما تقولون، فإن طاعتكم معروف أمرها، ومفروغ منها، فهي طاعة باللسان فقط. أما الفعل فيكذبها، وذلك كما تقول لمن اشتهر بالكذب: لا تحلف لي على صدقك، فأمرك معروف لا يحتاج إلى قسم أو دليل، ثم عقب- سبحانه- على هذه السخرية منهم بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ) أي: إن الله – تعالى - مطلع اطلاعا تاما على ظواهركم وبواطنكم فلا يحتاج منكم إلى قسم أو توكيد لأقوالكم، وقد علم – سبحانه - أنكم كاذبون في حلفكم[1].

- ولما نبه على خداعهم، أشار إلى عدم الاغترار بإيمانهم، وإلى قبول شهادة التوسم فيهم، أمر بترغيبهم وترهيبهم، مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم فقال: (يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن) أيها الذين أقروا بالإيمان بالله الذي له الكمال المطلق، وكأنه يقول يا محمد قل للجميع المؤمن وغير المؤمن

١) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي (١٠/١٤٥). بتصرف. تفسير النسفي (٢/٥١٤).

أطيعوا الله وكذلك الرسول الذي له الرسالة المطلقة، أطيعوهما الطاعة المطلقة ظاهرا وباطنا، لا تكونوا كالمنافقين الذين يؤمنون ظاهراً وهم في الباطن غير مؤمنين. وأخبرهم يا محمد أنهم إن تولوا فهذه التولية منكم تعتبر عصيانا لله ورسوله ولو على أدنى وجوه التولية فإنه سيكون على الرسول ما حُمّل من تبليغكم رسالة ربه إليكم على أكمل وجه.

«وأنتم عليكم ما حملتموه من قبول الرسالة، وليس عليه أن يجبركم على الهداية؛ وأفهم بقوله: {وإن تطيعوه} أي بالإقبال على كل ما يأمركم به {تهتدوا} إلى كل خير أنه لا هداية لهم بدون متابعته؛ ولما كان ما حمله الرسول - صلى الله عليه وسلم -مبهما، عينه بقوله: {وما على الرسول} أي من جهة غيره {إلا البلاغ المبين} أي التبليغ الذي يحصل به البلاغ من غير شك، إما بالإيضاح وحده أو مضموما إلى السيف فما دونه من أنواع الزواجر»[1].

موضع الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَأَقْسَمُواْ) بضمير الغيبة إلى قوله تعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ بضمير الخطاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال (وعليهم ما حُمّلوا - وإن يطيعوه يهتدوا) ليتوافق مع قوله تعالى: (﴿) الذي بصيغة الغائب بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وذلك لسرٍّ بلاغي وهو الزيادة في التعريض بهم إن هم لم يطيعوا الرسول في تبليغه إياهم. وكذلك المبالغة في إلقاء كل التبعات التي تترتب على عصيانهم للرسول فستكون

١) نظم الدرر (١٣/٢، ٣٠). بتصرف.

على عاتقهم وأنه لا يضره شيء من عصيانهم، لأنّ الضرر والنفع عائدان إليهم، ولأنّ مهمة الرسول هي التبليغ.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو التبكيت وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها والمبالغة في إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب وذلك لأن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

يقول الإمام النسفي - رحمه الله -[1]. «وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات هو أبلغ في تبكيتهم {فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم} يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه {وإن تطيعوه تهتدوا} أي وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى فالضرر

١) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي علامة الدنيا أحد الزهاد المتأخرين صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول: فقيه حنفي، مفسر، نسبته إلى « نسف » ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند. له مصنفات جليلة، منها: مدارك التنزيل في تفسير القرآن، وكنز الدقائق في الفقه، والمنار في أصول الفقه وغيرها. وتوفي سنة ٧١٠هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (٦٧/٤). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١٧/٣).

في توليكم والنفع عائدان إليكم»[1].

وقال الزمخشري وغيره «وقد جاء هذا الإخبار منسوجًا على أسلوب الالتفات بأن كان بضمير الغائب في (وأقسموا) إلى ضمير المخاطب في (فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ) قال: وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم»[2].

قوله تعالى: (وَأَقْسَمُواْ) «عدل عن الغيبة في (وَأَقْسَمُواْ) إلى الخطاب في (ذَٰلِكَ) وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، أبلغ في تبكيتهم، فإن تولوا أيها المخاطبون فإن عليه ما حمل وعليكم ما حملتم. والظاهر أنه تعالى أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يقول لهم: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تخاف مضرتهم، فكأن أصل الكلام: قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليك ما حملت، وعليهم ما حملوا، وما الرسول إلا ناصحٌ وهاد، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفعٌ في قبولكم، ولا عليه ضررٌ في توليكم»[3]. وقال الإمام الألوسي وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ خطاب للمنافقين الذين أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ما سمعت وارد من قبله عز وجل غير داخل في حيز ﴿قل﴾ على ما اختاره صاحب التقريب وغيره وفيه تأكيد للأمر السابق والمبالغة في إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب

---

١) تفسير النسفي (٥١٥/٢). لباب التأويل في معاني التنزيل, المعروف بـ« تفسير الخازن» لعلاء الدين على بن محمد المعروف بالخازن (٣٠١/٣). تحقيق: تصحيح محمد على شاهين الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ. بتصرف.

٢) مفاتيح الغيب, الرازي (٤١٢/٢٤). والبحر المديد (٥٩/٤).

٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب, الحسين بن عبد الله الطيبي (١٣١/١١). تحقيق: د. جميل بني عطا، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م. بتصرف.

والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع»[1].

- وإذا ما تأملنا الآيات التي سبقت موضع الالتفات أدركنا المبالغة في الالتفات أولاً، ووقفنا على العِلة لهذه المبالغة ثانياً. فالسياق يوضح حال الكافرين المتذبذبين في أقوالهم وأفعالهم، وانهم لا يتفقون على أمر واحد. وعليه فحال هؤلاء يَنمُ على الحيرة التي تملأ قلوبهم، فلابد لهم من رادع وزاجر ومبالغة في كل ما سيحصل إليهم، ولابد لهم من بيان حال واقعهم، فحصل كل ذلك عند تغير الكلام ودخول أسلوب الالتفات فيه. وبهذا يتبين أن الخطاب في قوله تعالى: (فِي ذَٰلِكَ) خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها والمبالغة في إيجاب الامتثال به وهو أبلغ في تبكيتهم.

****

١) روح المعاني الألوسي (٤٠٨/١٩).

المطلب الثالث: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى:
(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾) [سورة النور: ٦٢].

المعنى العام للآية الكريمة:

- جاء الحديث في الآية الكريمة بأسلوب الحصر إنما ليتضح أن المقصود بالمؤمنين هنا ليسوا أي مؤمنين وإنما هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم بربهم، المصدقين بكل ما جاء به النبي من عند ربه ليبلغهم إياه، هؤلاء هم الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا حزبهم أمر واجتمعوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - على هذا الأمر سواء لتدبير أمر جهاد في سبيل الله، أو في أي أمر من أمور التي تخصهم فيجب عليهم الطاعة المطلقة للرسول ولا يجوز لهم أن يذهبوا أو يفارقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يستأذنوه في أنهم سيذهبون إلى بعض شئونهم فيأذن لهم فهذه علامة إيمانهم الصادق الحقيقي بالله.

ثم أكملت الآية الحديث عن تعظيم حق النبي – صلى الله عليه وسلم – وتوقيره والتأدب معه عند الاستئذان منه وهؤلاء هم المؤمنون حق الإيمان، لذا تعقب الآية بهذا المعنى. إن الذين يستأذنونك تعظيما لك

ورعاية للتأدب معك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. أي هؤلاء هم من يعملون حقيقةً بموجب الإيمان ومقتضاه.

«وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يجمعهم يوم الجمعة فيستشيرهم في أمر الغزو، فكان يَثقُل على بعضهم المقام، فيخرجون بغير إذنه. وقيل: نزلت في يوم الخندق، وكان بعض الناس يرجعون إلى منازلهم بغير إذن النبي - صلى الله عليه وسلم- وتركوه وأصحابه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم بأن لا يرجعوا إلا بإذنه عليه السلام، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو لا ينبغي لأحد أن يرجع بغير إذنه.

وفي الآية بيان حفظ الأدب، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين ينبغي أن لا يرجعوا إلا بإذنه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو، لا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه، ولا يخالف أمر السرية. وكان المؤمنون بعد نزول هذه الآية لم يرجعوا حتى يستأذنوا، وأما المنافقون فيرجعون بغير إذنه.

ثم قال: فإذا استأذنوك لبعض شأنهم يعني: لبعض أمورهم وحوائجهم فأذن لمن شئت منهم ولا تأذن لمن شئت، لأن بعض المنافقين لم يكن لهم في الرجوع حاجة، فإن أرادوا أن يرجعوا فلا تأذن لهم، وأْذَن للمؤمنين. واستغفر لهم الله فيما استأذنوك من الرجوع بغير حاجة لهم. فإن الله - سبحانه - غفور لمن تاب رحيم به»[1].

«والمعنى: لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسول إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنت في أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع، والإمام الذي يترقب إذنه هو إمام

١) تفسير السمرقندي (٥٢٦/٢). تفسير الرازي (٤٢٤/٢٤). بتصرف.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإمرة، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ»[1].

﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾. والأمر الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه، لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة. فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم. كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام. وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان، ويلتزمون هذا الأدب، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة، ويستدعي تجمعها له.. ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول- صلى الله عليه وسلم- رئيس الجماعة. بعد أن يبيح له حرية الإذن:

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل. لكن هنا يدع له الرأي فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، فيرفع الحرج عن عدم الإذن، وقد تكون هناك ضرورة ملحة. ويستبقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف. ويترك له الكلمة الأخيرة في هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه. ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة، وعدم الانصراف هو الأولى، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي- صلى الله عليه وسلم- للمعتذرين» .

١) تفسير القرطبي (١٢/٣٢٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«وفي الآية إرشاد من الله لعباده المؤمنين، إذا كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر جامع، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين: أحدهما: أن يكون لشأن من شئونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له. والثاني: أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن»[1].

موضع الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ) بضمير الغيبة إلى قوله تعالى: (يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ) الذي بضمير الخطاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (يستأذنوه) ليتوافق مع سابقه ويكون كل السياق بصيغة الغائب لكنه عدل عن الغيبة إلى الخطاب وذلك لسبب بلاغي هو أرادة المبالغة في تهديد المنافقين على ما يفعلونه وأن الله يعلم ما يخفونه في صدورهم، والتحذير من سوء أفعالهم. وفيها تشريف للنبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه له الحق في الإذن من عدمه.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- إن الالتفات من الغائب إلى مخاطبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وذلك إيذانا بشريف مكانته، وعظيم منزلته، وأنه هو المخول في شأن أصحابه، وفي هذا كبير إجلال من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم - حيث انتقل من شأن أصحابه وغيرهم ممن يجب عليهم

١) تفسير السعدي (ص: ٥٧٦). بتصرف. تفسير ابن كثير (٦/٨٨).

استئذانه، إلى شأن النبي بصيغة الخطاب، وهذا من تمام العناية بالنبي وعظيم التشريف له، كما أن في هذا الالتفات رفعٌ لشأن المخاطب.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

يقول الإمام الزمخشري «يخبر الله في هذه الآية أنه أراد أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بغير إذنه وبخاصة إذا كانُوا معه على أَمْرٍ جامِع. فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم أعقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وضمنه شيئا آخر، وهو: أنه جعل الاستئذان كالعلامة لصحة الإيمان، وتعريض بحال المنافقين. ومعنى قوله: (لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم. والأمر الجامع: الذي يجمع له الناس، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز»[1].

وقال البيضاوي - رحمه الله - ولتعظيم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه ولذلك أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ فقال: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب بغير إذن ليس كذلك. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ما يعرض لهم من المهام، فأذن

١) تفسير النسفي (٥٢١/٢). بتصرف.

لمن شئت منهم، فيه تفويض الأمر إليه - صلى الله عليه وسلم-»[1].

وقال ابن عاشور – رحمه الله – «وقد وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ) تشريفا للرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا الخطاب وقد خير الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين لأنه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح من حضور الأمر الجامع لأن مشيئة النبي لا تكون عن هوى ولكن لعذر ومصلحة»[2].

- وفي ضوء ما سبق يتبين أن الالتفات من الغيبة إلى مخاطبته -صلى الله عليه وسلم- إيذانا بشريف مكانته، وعظيم منزلته، وأنه هو المخول في شأن أصحابه، وفي هذا إجلال من الله لرسوله حيث انتقل من شأن أصحابه إلى شأنه هو عناية به صلى الله عليه وسلم في قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ) تشريفاً له بهذا الخطاب.

****

١) تفسير البيضاوي (١١٥/٤).
٢) التحرير والتنوير(٣٠٧/١٨). بتصرف.

المطلب الرابع: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾) [سورة النور: 53].

المعنى العام للآية:

- بعد أن ذكر الله –سبحانه وتعالى - حكم الذي يقذف الأجنبيات المسلمات بغير حق، وكذلك حكم من يقذف زوجاتهم، أعقب هذا بذكر حادثة أفجعت النبي وصحابته وهي حادثة الإفك والبهتان على الصِّدّيقة بنت الصّدّيق - رضي الله عنهما- في آيات عشر بعد هذه الأحكام، وقد تم في هذه الآيات العشر براءة السيدة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ومن سمع لهم وتكلم بكلامهم، وذلك صيانة لعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وتنبيه للمؤمنين بما يجب عليهم إذا حدث في مجتمعهم بمثل هذا الأمر، وكذلك إذا ابتلي المجتمع بمثل هؤلاء المنافقين والذين هم موجودون في كل مكان وزمان.

وقد تحدثت الآيات السابقة في حادثة الإفك وبينت أن الذين قاموا بهذه الكذبة الكبيرة، والبهتان العظيم، هم جماعة وعُصبة منكم أيها المؤمنون، هؤلاء تعاونوا مع بعض المنافقين، وأجمعوا أمرهم على إعلان هذا البهتان العظيم والجريمة النكراء، ومن ثم إذاعته وإشاعته بين الناس في المدينة المنورة لمقاصد ومآرب لهم أخفوها عن الناس لكن الله عليم بكل ما يفعلون.

ثم تأتي البشارة من الله للفئة المؤمنة بأن هذه الحادثة فيها الخير لكم

وليست شر، فلا تحسبوه شرا لكم، وإن كان هذا الظاهر الذي يبدو لكم، بل هو خير كثير لكم، وذلك لحيازتكم بسببه للثواب العظيم، وكذلك إظهاراً لكرامتكم عند الله حيث أنزل الله فيكم قرآن يبرئ أمكم عائشة - رضي الله عنها - يتلى على مدار الدهر في براءتكم وتعظيم شأنكم عنده - سبحانه وتعالى-. كما أن في هذا تهديد ووعيد لمن تكلم فيكم، والثناء من الله على من ظن بكم خيرا، وغير ذلك من الفوائد الدينية الكبيرة والآداب العظيمة التي لا تخفى على من تدبرها.

فكل من تكلم منهم في هذه الجريمة، عليه ما اكتسب من الإثم العظيم والذنب الكبير. لكن الآيات وضحت أن الذي تولى كِبرَ هذا الأمر له العذاب العظيم في الآخرة، وهو عبد الله بن أبى بن سلول، وفي الدنيا أظهر الله نفاقه على رؤوس الأشهاد وعرفه القاصي والداني.

ثم يأتي البيان الواضح للأمة المسلمة جميعا في كل زمان ومكان، في كيفية التعامل مع مثل هذه الجريمة التي قد تقع كثيراً في أي مجتمع. فيقول الله تعالى: (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) «هلا إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في أُمّكم عائشة ظننتم بها خيرا، لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن، ويكفكم عن إساءتكم لها ولو بالظن أو الحديث النفسي. فهي أُمكم وأنتم تعرفونها حق المعرفة، أو على الأقل من المؤمنين الذين هم كأنفسكم. فهَلّا -م حين سمعتم هذا الكلام الشنيع، إن هذا كذب ظاهر مكشوف؟ فإن الذي وقع لم يكن فيه ما يرتاب منه أو يشكّ فيه أحد، ذاك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك، ورسول الله بين أظهرهم ينفى كل شك، وإنما قيل ما قيل

لحسد في القلوب كامن، وبغض في النفس مكتوم»[1].

لقد كانت معركة خاضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك. وخاضها الإسلام. معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج منها منتصرا كاظما لآلامه الكبار، محتفظا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره. فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله. والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه. ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه. والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها: (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) نعم كان هذا هو الأولى والأكمل والأنسب كذلك.. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا. وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة.. وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم. فظن الخير بهما أولى. فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرا.. كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما -.

وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يرجع إلى نفسه ويستفتي قلبه، فيستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة، وما نسب إلى رجل من المسلمين

١) تفسير المراغي (٨٣/١٨). بتصرف.

من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة! هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور» .

وفى قوله تعالى: (ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) أمور منها:

أولا: الإشارة إلى تلك الرابطة القوية الوثيقة، التي تربط المؤمنين جميعا بعضهم ببعض، بحيث يكون ما يعرض لأحدهم من عارض يمسّه، في نفسه، أو دينه، أو مقامه في مجتمعه هو مصاب يصاب به المجتمع المؤمن كلّه.. فالمؤمنون كما وصفهم القرآن الكريم بأنهم إِخْوَةٌ، أو كما وصفهم الرسول الكريم بأنهم جسد واحد.

ثانيا: الإشارة إلى أن المؤمن حقّا، إنما ينظر إلى المؤمنين من خلال نفسه، فإذا كان على السلامة في دينه، والاستقامة في طريقه، رأى المؤمنين جميعا مثله، على تلك الصفة.. وهذا من شأنه أن يلفت المؤمن إلى نفسه أولا.. فإذا سمع عن مؤمن ما ينقص من إيمانه، أو ما يشير إلى انحراف في سلوكه، كان عليه أن يظن به خيرا.

ثالثا: الإشارة إلى أن المؤمن من شأنه أن يكون مبرّأً من التُّهَم، بعيدا عن مواطن الشبهات.. وأنه أبدا على هذه البراءة حتى تثبت إدانته.. أما قبل هذا، فإن كلّ كلمة سوء تقال فيه، هي إثم كبير، وبهتان عظيم..»[2].

موضع الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) بضمير الغيبة ، بعد أن كان بضمير الخطاب في قوله تعالى:

---

٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/١٢٤٠) .

(لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ)وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ظننتم بأنفسكم) ليتوافق مع سابقه من الخطاب بدل من الغائب في قوله (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم). لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات مبالغة في التهديد والتوبيخ لمن يسمع للشائعات عن إخوانه المسلمين ولا يرد غيبتهم، وإن كان الواجب عليه أن يظن بهم الخير كما يظن بنفسه.

سبب الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو إظهار الإنكار والوعيد الشديد لمن يفرح في إخوانه والشماتة فيهم، وبيان المبالغة في التوبيخ لمن لم يظن بإخوانه ظن الخير وأن هذا يُعدّ من أسباب قلة الإيمان عن من شأنه هذا.

أراء العلماء في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

فإن - هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا و-م هذا إفك مبين؟

قال الزمخشري «ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ - ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله في أخيه، أن يبنى الأمر فيها على الظن لا على الشك. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: هذا إفك مبين هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته. كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له»[1].

وصاغه الإمام الرازي وغيره بقوله: «هلا قيل لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وإن قلت: فلم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن المضمر إلى الظاهر؟ الجواب: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وفي التصريح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يظن بالمسلمين إلا خيرا، لأن دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه إلى وجوب الاحتراز عن الضرر، وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن العصية، فإذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد في مقابلته راجح يساويه في القوة وجب إحسان الظن، وحرم الإقدام على الطعن، فعدل عن الخطاب للاهتمام بالتوبيخ فإن الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر»[2].

وقال الإمام أبو السعود عن هذا الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة فيقول– رحمه الله – « (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة في قوله:(ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم على وجه المثابة بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فإن كون وصف الإيمان مما يحملهم على إحسان الظن بإخوانهم

١) بتصرف: تفسير الزمخشري (٣/٢١٨).
٢) تفسير الرازي (٢٣/٣٤١). التحرير والتنوير (١٨/١٧٤).

النازلين منزلة أنفسهم»[1].

- في ضوء ما سبق يتبين أن السر في الالتفات في الآية الكريمة هو المبالغة في التوبيخ لكل من يظن بغيره من إخوانه ظن السوء، وهذا العدول عن ضمير المخاطب في إسناده فعل الظن إلى المؤمنين والمؤمنات هذا أسلوب التفات، فمقتضى الظاهر أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرا، فالتَفَتَ هنا عن هذا الخطاب للاهتمام بمثل هذا التوبيخ لمن يقومون بهذا الأمر الغير المقبول، والالتفات هو نوع من هذا الاهتمام بالخبر وهذا ما حدده ووضحه الالتفات من الخطاب للغائب هنا.

****

١) إرشاد العقل السليم (١٦١/٦) بتصرف.

المطلب الخامس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾) [سورة النور: 64].

المعنى العام للآية الكريمة:

- بهذه الآية الكريمة ختم الله – جلّ وعلا – هذه السورة المباركة سورة النور، وهذه الآية والآيات التي قبلها نجد أنها مشتملة على الكثير من الآداب الاجتماعية التي لابد لكل مجتمع أي مجتمع من التمثل بها حتى يكون مجتمعاً مسلما ومتحضراً على الحقيقة. ومن هنا تختم السورة بأن الله - تعالى - هو مالك السموات والأرض وكل ما فيهما، وأنه - سبحانه – هو عالم الغيب والشهادة، يعلم كل ما يعمله العباد وما يقولونه سراً كان أو جهراً، وهذا خطاب لكل من يصلح لهم الخطاب، أو للمنافقين خاصة إذ أن المنافقين يُظهرون خلاف ما يُبطنون، فكيف تخفى عليه أحوالهم وهو يعلم السرّ وأخفى، فهم وإن حاولوا ستروا وكتموا فإن الله تعالى يعلمه وسيخبر عباده يوم القيامة ويفضح أمرهم على رؤوس الأشهاد، بكل ما أبطنوه من سوء أعمالهم، ومن ثم سيجازيهم الجزاء الأوفى بما قدموه أو أخروه، فالله- سبحانه - علمه محيطٌ بكل شيء، وجميع ما في الأرض أو في السموات مختصة به علما أو خلقا وملكا، ومن هذا حاله فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا في سترها عن أعين الخلق وإخفائها عنهم.

وقال بعض المفسرين «بهذه الآية تختم السورة الكريمة، مضيفة هذا الوجود كله إلى الله - سبحانه وتعالى -، لأنه الذي أوجده، وأقامه على سنن، وأخذه بنظام حكيم، لا يتخلف عنه أبدا. والإنسان هو بعض ما لله فهو جزء من هذا الوجود. وهذه الأحكام والشرائع التي سَنّها الله للإنسان، وبين له فيها الطريق الذي يسلكه، والطرق التي يجتنبها هي من سنن هذا الوجود، وفى خروج الإنسان عن أمر الله خروج على هذه السنن، وانحراف عن الوضع السليم الذي يجب أن يكون عليه، الأمر الذي يعرضه للعزلة عن هذا الوجود، ويلقى به بعيدا عن دائرة الأمن والسلامة.. ومن هنا يجيء شقاوه في الدنيا والآخرة جميعا.

وفى قوله تعالى: (قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ) تحذير للمخالفين لله، الخارجين على سننه، المتمردين على أوامره تحذير لهم من عقابه الراصد، وعذابه الأليم. لأنه سبحانه يعلم كل شيء، ويعلم من الإنسان ما يُخفى وما يُعلن، وما هو عليه من صلاح وفساد، وطاعة وعصيان، واستقامة وانحراف. وقد هنا تفيد التحقيق والتوكيد.

وفي قوله تعالى: (وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ)، إشارة إلى أنهم سيُبعثون ومن ثم سيحاسبون على هذه الأعمال، كبيرها وصغيرها، حيث يرون كل ما عملوه حاضرا، فيعرف كل عامل ما عمل، وما لعمله من ثواب أو عقاب.

وتعليق عِلْمِه - سبحانه وتعالى - بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه، لأن العلم بوقت وقوع الشيء، يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه. وإخبارهم بما عملوا من الأعمال التي من جملتها مخالفة

الأمر، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين. والله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم»[1].

«ويختم هذا التحذير، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مُطّلع عليها، رقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه. وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله وتذكيرها بخشيته وتقواه. فهذا هو الضمان الأخير، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الأخلاق والآداب، التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء. وفي قوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ) تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها. وافتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام وتنبيه للناس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون»[2].

موضع الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُمۡ) حيث جاء السياق بلفظ الغيبة، بعد أن كان بلفظ الخطاب في قوله: (قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ترجعون - فينبئكم) ليتوافق مع سابقه من السياق القرآني ويكون جميع السياق بصيغة الخطاب لكنه عدل عن ذلك لسبب بلاغيّ هو تهديد المنافقين على سوء أفعالهم فهم يُضمرون الشرّ والكفر ويُظهرون الإسلام. وقد أعرض عن خطابهم ازدراءً لهم وتبكيتا.

١) التفسير الوسيط للزحيلي (٢/١٧٧٦).

سبب الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو التهديد والوعيد الشديد للمنافقين، والالتفات من الخطاب الذي فيه تشريف للمخاطَب إلى الغائب الذي يغلب عليه الإهانة والتقريع والازدراء، وذلك توبيخاً لهم فَهُمْ بهذا الالتفات إلى الغائب كأنهم بهذا غير أهل للخطاب.. وأنه إن كان هناك من حديث وخطاب إليهم، فليوجه إلى غيرهم، ممن هم أهل لأن يخاطبوا، لكنهم ليسوا أهلاً للخطاب لما يُضمرونه في قلوبهم، وفي هذا تقريع لهم وبيان أن الله سيجازيهم على ما يُبطنونه من سوء فالله سبحانه – عالمٌ بكل شيء ظاهراً وباطناً.

أراء العلماء في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

يقول الإمام الألوسي – رحمه الله تعالى – «وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده، وفيه إشعار بأن علمه جل وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا. ويجوز أن يكون الخطاب السابق خاصا بهم أيضا فيتحقق التفاتان التفات من الغيبة إلى الخطاب في أنتم والتفات من الخطاب إلى الغيبة في يرجعون والعطف على حاله. وإلى هذا ذهب الإمام القرطبي فقال: «ويوم يرجعون إليه بعد ما كان في خطاب رجع في خبر، وهذا يقال له: خطاب التلوين»[1].

وقال الإمام الزمخشري ومعه الإمام النسفي – رحمهما الله – «والخطاب

١) تفسير الألوسي (٤١٧/٩). بتصرف.

والغيبة في قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه يجوز أن يكونا جميعا على المنافقين وذلك على طريق الالتفات، ويعلم يوم يردون إلى جزائه وهو يوم القيامة والخطاب والغيبة في قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات»[1].

«والسر في الانتقال من الخطاب: (قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ) إلى الغيبة في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟) وكان النظم يقضى بأن يجيء هذا المقطع من الآية الكريمة هكذا: (ويوم ترجعون إليه فينبئكم بما عملتم). وذلك لأن الخطاب بعلم الله - سبحانه - بما عليه الناس من خير أو شر هو خطاب عام، موجه إلى الناس جميعا. أما قوله: (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟) فهو موجه إلى المكذبين بهذا اليوم من المنافقين وغيرهم، الذين لا يرجون لقاء الله، ولكن على طريق الإيماء، وذلك بتوجيه الحديث الذي هو من شأنهم إلى غيرهم، من المؤمنين الذين يؤمنون باليوم الآخر، وما يلقى الناس فيه. وكأنهم بهذا غير أهل لأن يخاطبوا. وأنه إذا كان ثمة حديث إلى هؤلاء المكذبين، فليوجه إلى غيرهم، ممن هم أهل لأن يسمعوا، ويعقلوا، وأنه إذا كان لهؤلاء المكذبين بهذا الحديث، عودة إلى أنفسهم، وإلى النظر في هذا الحديث، فليأخذوه من أهله»[2].

- وفي ضوء ما سبق يظهر أن الالتفات هنا مقصود به هؤلاء المنافقين لأنهم هم الذين لهم ظاهر يتعاملون به مع المسلمين ولهم باطن يضمرونه

١) تفسير الزمخشري (٣/٢٦١) تفسير النسفي (٢/ ٥٢٣).
٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/١٣٤٠).

لا يعلمه المسلمون وهم بهذا يتعاونون على المسلمين فيما إذا كان هناك شيء بين المسلمين وغيرهم، والله وحده يعلم هذا منهم ومن ثم سينبئهم بما عملوا يوم القيامة وبما أضمروه. لهذا التفت عنهم من خطابهم إلى الغيبة الذي يُظهر مدى استهانة الله بهم وعدم الحديث معهم لأنهم ليسوا أهلاً لشرف مخاطبتهم. لذا كان السياق ويوم يرجعون إليه.

****

المطلب السادس: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى:
(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥) [سورة النور: 55].

المعنى العام للآية:

« كان هذا من وعود الله الصادقة لعباده، والتي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفون في تدبيرها، وأنه يمَكّن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم بإظهار دينه على الدين كله. فوعدهم الله بالاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكن من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، ولا يخافون أحدا إلا الله، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل التمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، فمتى قاموا بالإيمان والعمل الصالح،

فسيجدوا ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح. ومن كفر بعد هذه النعم كلها ومنها الاستخلاف العظيم على الوجه المعروف فأولئك بعيدين من الخير، وفاسقون خارجون من الدين خروجا كاملا، لا تقبل معه معذرة»[1].

«وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد أن يستخلفهم في الأرض. وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا، ذلك وعد الله لهم. ووعد الله حق، ولن يخلف الله وعده.

فالإيمان هو منهج حياة متكامل، يتضمن كل ما أمر الله به، بما فيه توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل.

أما حقيقة الاستخلاف: فهي ليست مجرد الملك والقهر والغلبة. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير وتحقيق المنهج الذي رسمه الله لعباده.

أما التمكين فهو تمكين الدين في القلوب أولاً، كما يتم تمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها. فلما قامت الأمة بهذا التمكين، أمِنوا على أنفسهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه من البُعد عن دينهم، فأدخل الله عليهم الخوف، وغيروا فغير بهم» .

- بيّن الله أن من أطاع الله ورسوله فقد هُدي للحق، ومن ثم فجزاءه النعيم المقيم في جنة عرضها السماوات والأرض. أردف هذا بوعده

١) تفسير المراغى(١٨/ ١٢٥.١٢٦). بتصرف. تفسير السعدي (ص: ٥٧٣). نظم الدرر (٣٠٧/١٣).

سبحانه لعباده المؤمنين، بأنه سيجعلهم خلفاء في أرضه، وهو وحده مَن سيؤيدهم بالتمكين، وهو وحده مَن سيُبدلهم بعد خوفهم أماناً دائما، والسبب في هذا كله هو أنهم يعبدوا الله وحده مؤمنين به لذا فهم آمنون بجنابه، وكل من جحد هذه النِّعم وأعظمها نعمة الإسلام والعبودية لله، فهو العاصي لربه، وكافر بأنعمه. والله قد وَفّاهم الله – سبحانه – بهذا الوعد وكان هذا جزءا من التمكين والاستخلاف لهم، فقد جعل دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم. وقد تغير حالهم من الخوف إلى الأمن على أنفسهم ودينهم وعباداتهم.

موضع الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (يَعْبُدُونَنِي) بضمير التكلم. إلى قوله تعالى (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ)الذي جاء بضمير الغيبة وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (يعبدوه – ولا يشركوا به) ليتوافق السياق كله سابقاً ولاحقاً، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات من الغائب إلى المتكلم، وذلك لسرٍّ بلاغي هو التشريف والتعظيم لمن عبد الله بحق، وان هذه العبودية لله هي أساس هام للاستخلاف في الأرض، وأن التمكين فيها إنما يكون لمن شرفهم الله بعبادته وحده.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- المتأمل في الآية يجد أن سبب الالتفات من الغيبة إلى التكلم، هو أن الثبات على توحيد الله وحسن عبادته وحده، والترَفُّع عن عبادة من سواه، هو السبب في أَمْن العباد وتمكينهم في الأرض، حتى يحققوا

العبودية له وحده. وهذه العبادة له وحده دون سواه هو تشريف لصاحبها. لهذا عدل السياق القرآني من الغائب إلى التكلم.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

قال أبو السعود: « التمكين هو جعل الشيء مكانا لآخر. ومكّن لهم في الأرض بجعلها مقرا لهم، وفيه دلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل. وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقها لهم إليه وترغيبا لهم في قبوله عند وروده ولأن في توسيطها بينه وبين وصفه أعني قوله تعالى {الذي ارتضى لهم} وفي إضافة الدين إليهم وهو دين الإسلام ثم وصفه بارتضائه لهم، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه. وتبديل خوفهم من الأعداء أماناً لأنهم (يَعْبُدُونَنِي) حال من الموصول الأول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخفاف وما انتظم معه في سلك الوعد»[1].

والسر في الالتفات هو تشريف الله لمن ثبت على عبادته فإن الاستخلاف إنما هو كائن للذين ءامنوا، وتبديلهم من بعد الخوف أمنًا من أجل ثباتهم على توحيد الله وعبادته وأن العبادة إنما تكون لله وحده دون سواه لذلك ناسب هنا التعبير بصيغة التكلم فالعبادة لا تُصرف إلا لله، وفي هذا ما فيه من السعادة الدنيوية والأخروية.

١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٩١). فتح القدير للشوكاني (٥٦/٤). نظم الدرر (٣٠٥/١٣).

المبحث الثاني
الالتفات في غير الضمائر
في سورة النور

المطلب الأول: التفات عن التثنية إلى المفرد:

قال تعالى: (وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾) [سورة النور: ٤٨].

المعنى العام للآية الكريمة:

- بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى – الدلائل الواضحات على ألوهيته وتوحيده بالعبودية دون سواه، وأتم بيانها على أكمل وجه واحسن بيان، أعقب هذا بذكر هدايته هداية التوفيق والإعانة والتي يختص بها الله من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم، أعقب ذلك بذكر الذين لم يهتدوا بها وهم المنافقون، الذين يقولون كلاماً بأفواههم وليس منه شيء في قلوبهم، فهم يقولون: آمنا بالله وبالرسول لكنهم يفعلون عكس ما يقولون، وتراهم فعلاً وقولاً إذا دعوا ليحكم بينهم الرسول بحكم الله فيما يتنازعون فيه بينهم رفضوا أَبَوا وقالوا نخاف أن يحيف الله ورسوله علينا، لكن المؤمن الصادق الإيمان حقيقة إذا دُعي إلى الله والرسول قال سمعنا وأطعنا لله ورسوله.

قوله تعالى: (وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ) والمعنى: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله، تجدهم يعرضون ويريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع. وهذا موضع الكشف عن ضمائرهم، وهو الخضوع لحكم الله ورسوله، وإذا دعوا

إلى الله ورسوله، والدعوة إلى الله ورسوله، ليحكم بينهم، الضمير يعود عليهم، وإذا دعوا إلى الله أي كتابه، ورسوله أي سنته وحكمه ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون عن المجيء إليه، إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم -ليحكم بينهم. أي ليقضي بينهم بالقرآن إذا طائفة منهم معرضون عن طاعة الله ورسوله»[1].

قال الشوكاني «شرع الله سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال عنهم بصيغة القول المنبئ عن أن كلامهم كان من ناحية اللسان وليس من القلب ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، ولهذا قال: ثم يتولى فريق منهم أي: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة، من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة، ثم حكم عليهم - سبحانه - بعدم الإيمان فقال: وما أولئك بالمؤمنين أي: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين، ويندرج تحتهم من تولى وأعرض والإشارة في قوله: (أولئك) راجع إلى من تولى»[2].

وقال الإمامان ابن كثير[3]. والطبري. «يخبر الله تعالى عن صفات

١) تفسير القاسمي (٧/ ٤٠٠). تفسير السمرقندي (٢/ ٥١٩). بتصرف.

٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٢). تفسير السعدي (ص: ٥٧٢). بتصرف.

٣) أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي الدمشقي: حافظ مفسّر مؤرخ فقيه. ولد في قرية «مجدل» من أعمال بصرى الشام سنة ٧٠١هـ. ورحل في طلب العلم, وتناقل الناس تصانيفه في حياته. من أهم كتبه: تفسير القرآن العظيم والبداية والنهاية, والباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث,

المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولا بألسنتهم ويخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون. وإذا طُلِبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن قبول الحق، والرضا بحكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -»[1].

موضع الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ) الذي جاء بصيغة المفرد في قوله (ليحكم). الذي يدل على الواحد المفرد. إلى قوله تعالى: (وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) الذي جاء بالصيغة الدالة على التثنية في قوله (الله ورسوله) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ليحكما) بصيغة التثنية حتى يتوافق السياق كله سابقاً ولاحقاً، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن التثنية إلى المفرد، وذلك لسرٍّ بلاغي هو التشريف والتعظيم للنبي – صلى الله عليه وسلم – إذ هو النائب في الحكم عن الله - تعالى - لذلك عدل السياق عن التثنية إلى الإفراد.

سبب الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن الالتفات جاء من التثنية إلى المفرد، فبدلاً من أن يكون السياق متواصلا بصيغة المثنى فيقول (وإذا دعوا إلى الله ورسوله) فالطبيعي أن يقول (ليحكما). عدل عن ذلك فقال (ليحكم) إلى المفرد وهذا تشريف لصاحب هذا الحكم وهو النبي، إذ هو نائب عن ربه في الحكم بينهم، وكذلك إقراره على هذا الحكم زيادة لهذه

وغيرها من المصنفات النافعة. وتوفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ ودفن بجوار شيخه ابن تيمية في مقبرة الصوفية. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي (٦٧/١). الأعلام للزركلي (٣٢٠/١).

١) تفسير ابن كثير (٧٤/٦). تفسير الطبري (٢٠٤/١٩). بتصرف.

المكانة له – صلى الله عليه وسلم -.

أراء العلماء في الالتفات عن التثنية إلى المفرد:

قال علماء التفسير عن هذا الالتفات من التثنية للمفرد ومنهم الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله - «ثم وصف الله هؤلاء المنافقين بأن فريقا منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله في خصوماتهم، فقال متحدثا عنهم: وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم. ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم – لأنه هو المباشر للحكم، حتى وإن كان الحكم في الحقيقة لله - سبحانه - إذا فريق منهم معرضون عن هذا الحق المحكوم به. وإذا فجائية، والمعنى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله والرسول ليحكم بينهم، والضمير يعود عليهم، على أنه ضمير الواحد مع أنهما اثنان الله ورسوله، ولكن لوحدة حكمها، وأنه واحد، عاد الضمير عليهما بالواحد»[1].

وقال الألوسي «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أي وبين خصومهم، وضمير (يحكم) للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وجوز أن يكون الضمير عائدا إلى ما يفهم من الكلام أي المدعو إليه وهو شامل لله – تعالى – ورسوله- عليه الصلاة والسلام - لكن المباشر للحكم هو الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وذكر الله – تعالى - على الوجهين لتفخيمه -عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى وأن حكمه في الحقيقة حكم الله - عز وجل-. وإنه إذا ذكر اسمان متعاطفان والحكم إنما هو لأحدهما كما في نحو قوله تعالى: (يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ) [سورة البقرة:

١) تفسير السعدي (ص: ٥٧٢). أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (ص: ١٨٢).

٩]. أفاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه وإنهما بمنزلة شيء واحد بحيث يصح نسبة أوصاف أحدهما وأحواله إلى الآخر، وضمير دعوا يعود إلى ما يعود إليه ضمير يقولون أي وإذا دعي المنافقون أو المؤمنون مطلقا إذا فريق منهم معرضون أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لكون الحق عليهم وعلمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالحق وهو شرح للتولي ومبالغة فيه»[1].

«فالدعوة ليحكم الرسول بينهم تشريف للنبي، فالضمير راجع إليه لأنه المباشر للحكم حقيقة وان كان الحكم حكم الله حقيقة وذكر الله لتفخيمه عليه السلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى»[2].

«وقد أفرد الله الضمير وقد تقدمه اسمان وهما: الله ورسوله، لأنه المباشر للحكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله في الحقيقة لأنه خليفته ولأن حكم الرسول حكم الله؛ ولأنه لا يحكم إلا عن وحي. وبيان أن الحكم النبوي الذي يحكم به هو حكم الله تعالى، لأنه ما ينطق عن الهوى. ولهذا الاعتبار أفرد الضمير في قوله: (ليحكم) العائد إلى أقرب مذكور ولم يقل: ليحكما»[3].

****

١) تفسير الألوسي (٣٨٦/٩). بتصرف. تفسير أبي السعود (١٨٦/٦).
٢) فتح القدير للشوكاني (٥٢/٤). روح البيان (١٧٠/٦). بتصرف.
٣) الدر المصون السمين الحلبي (٤٢٦/٨). بتصرف. التحرير والتنوير (٢٧٠/١٨).

المطلب الثاني: الالتفات من المضمر إلى الاسم الظاهر:

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾) [سورة النور: ٤١].

المعنى العام للآية الكريمة:

- لما ذكر الله للعباد في كتابه المسطور – القرآن الكريم - من وضوح الآيات الدالة على عظمته ومن ثم عظمة ما خلق، وهذا يدعُ البشر إلى توحيده وعبادته، شرع هنا يتحدث عن بعضاً من الآيات الكونية المنظورة في كتابه المنظور في الواقع ويراه الجميع، وهذا يزيد الناس حجة وبياناً حتى يرجع الكافر والمنافق عن غيّه وعبوديته لغير الله، كما بين أن مصنوعاته هذه التي نراها جميعا تدل بتغييرها على أن لها خالقا قادرا قدرة مطلقة على الكمال، ومن ثم له أن يرسل الرسل إلى خلقه، وعليهم أن يؤمنوا به، وقد بعثهم فعلا إلى أقوامهم وأيدهم بالمعجزات، وأخبروا قومهم بالجنة لمن أطاع، والنار لمن عصاه واتبع غير سبيل الرسل. ولهذا بدأ بخطاب النبيّ - صلى الله عليه وسلم – لكن هذا الخطاب لجميع العقلاء، وإن كان في صورة خطاب النبي محمد. فبدأ بقوله ألم تر يا محمد أننا خلقنا كذا وكذا من هذه المخلوقات التي يراها الجميع، وكل هذه المخلوقات التي في السماء والأرض جميعا، وإن كانت لا تعقل إلا أنها لا تفتر ولا تكِلّ ولا تملّ عن تسبيحها وتنزيهها لربها خالقاه – جل في علاه – ومن هذه المخلوقات الطير التي تصف

أجنحتها في السماء أثناء طيرانها، أيضاً تسبح ربها. والله عليم خبير بما يفعل هؤلاء الذين يسبحون الله والذين لا يسبحونه، وعليم بصلاتهم وذكرهم لربهم.

والله - سبحانه وتعالى - يريد أن يلفتنا إلى ما يدل على وحدة الخالق الأعلى، وكمال قيوميته، وكمال قدرته، ذكر لنا في هذه الآية بعد عدة أوامر ونواهٍ، وكأن ربك - عز وجل - يريد أن يطمئنك على أن هذا الكون الذي خلقه من أجلك وقبل أن تولد، بل وقبل أن يخلق الله آدم، أعدّ له هذه الكون الفسيح الذي يدل على عظمة الخالق، وجعله في استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه، يقول لك ربك: اطمئن فلن يخرج شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مسخر لك، ولن يأتي يوم يتمرد فيه، أو يعصي أوامر الله. فبدأ السياق القرآني يخبرنا أنه تعالى أنه يسبحه من في السموات والأرض، من الملائكة والأناسي، والجان والحيوان، حتى الجماد، وقوله: (وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ) أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال: (كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ) أي: كلٌ قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله - عز وجل- وتوحيده»[1].

«وخص الله الطيور بالذكر مع أنها مندرجة تحت من في السموات والأرض، وذلك لعدم استقرارها بصفة دائمة على الأرض، فهي- في مجموعها- تارة على الأرض، وتارة في الجو. وذكرها في حال بسطها لأجنحتها لأن هذه الحالة من أعجب أحوالها، حيث تكون في الجو باسطة لأجنحتها بدون تحريك، مما يدل على بديع صنع الله في خلقه. ثم

١) البحر المحيط في التفسير (٥٥/٨). تفسير القرطبي (٢٨٦/١٢). بتصرف.

أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء -جلّ في علاه-. وقال ابن عطية «ألم تر هنا للتنبيه، والرؤية يُقصد بها رؤية الفكر، كأنه قال انتبه فإن الله يسبح له من في السماوات، والتسبيح هنا التعظيم والتنزيه فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين، وقال الجمهور إن التسبيح حقيقي. وقوله: (من في السماوات والأرض) عامة لكل شيء من له عقل وكذلك سائر الجمادات، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بلفظ (مَن) تغليبا لحكم من يعقل، وصافات معناه مصطفة في الهواء، وهذا يدل على المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه»[1].

موضع الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ) الذي جاء بذِكرِ الاسم الظاهر في قوله (والله). بدلاً من الضمير الذي في قوله تعالى: (يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) الذي جاء بالضمير في قوله تعالى: (يسبح له) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وهو عليم) بالضمير بدلا من أن يكون السياق هنا بالاسم الظاهر حتى يتوافق السياق كله سابقاً ولاحقاً، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر، وذلك لسرٍّ بلاغي هو الإشعار بعلم الله المطلق بما يفعله خلقه، من تسبيح أو غيره.

سبب الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار سببه تربية المهابة في قلوب السامعين لمعرفة مدى عظمة خلق

١) تفسير ابن عطية (١٨٨/٤). تفسير البغوي (٤٢١/٣). بتصرف.

الله وأن الكون كله يسبح لله ويعظمه والإشعار بعلة الحكم.

أراء العلماء في الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

«وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم. وإظهار اسم الله في {والله عليم}، يدل على قول كون الضمير في الموضعين لغير الله، إذ لو كان لله لم يظهر الاسم، لتقدم ذكره في قوله تعالى: {أن الله يسبح}، وكان يلزم أن يكون « وهو عليم «. وإنما يجوز في هذا لأن المعنى لا يشكل، فلا يظن فيه أن الثاني غير الأول»[1].

يقول الألوسي – رحمه الله - في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ) أي بالذي يفعلونه وهذا اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الحديث، و (ما) إما عبارة عن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندا إلى ضمير العقلاء لأنه الغالب. وأما التعبير عن التسبيح العام الخاص بالطير معا أو عن تسبيح الطير فقط، فالفعل على حقيقته. والاعتراض حينئذ مقرر لمضمون كل قد علم أي الله تعالى صلاته وتسبيحه.

وقوله (يفعلون) ، وفيه كما قيل وعيد وتخويف ولعل الظاهر أن الخطاب فيه للكفار، وربما يجوز أن يكون ضمير الجمع المراد بالجملة تخويفهم لإعراضهم عن تسبيحه تعالى بعد أن أخبر سبحانه عمن أخبر بأنه قد علم صلاته وتسبيحه، لأنه سبحانه الخالق لهما ولما فيهما

١) تفسير أبي السعود (١٨٤/٦). بتصرف.

من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجادا وإعداما إبداء وإعادة، وفي هذا بيان لاختصاص الملك به تعالى في المنتهى إثر بيان اختصاصه به تعالى في المبتدأ، وقيل: إن الجملة لبيان أن ما يرى من ظهور بعض الآثار على أيدي المخلوقات لا ينافي الحصر السابق بإفادة أن الانتهاء إليه تعالى لا إلى غيره ويكفي ذلك في الحصر، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم»[1].

****

١) تفسير الألوسي (٣٨١/٩). الهداية الى بلوغ النهاية (٥١٢٨/٨).

الفصل الرابع
الالتفات في سورة الفرقان

المطلب الأول: السورة وآياتها ومكيتها وترتيبها:

سميت سورة الفرقان لافتتاحها بالثناء على الله - عزّ وجلّ - الذي نزل الفرقان، هذا الكتاب المجيد على رسوله محمد - صلّى الله عليه وسلم - ، فهو النعمة العظمى، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وجعله نذيرا للعالمين الجن والإنس. تبارك الذي نزل هذا الفصل بين الحق والباطل، فصلا بعد فصل وسورة بعد سورة، على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم -، ليكون بما أرسل به من القرآن لجميع الجن والإنس، الذين بعثه الله إليهم داعيا إليه، منذرا ينذرهم عقابه ويخوفهم عذابه، إن لم يوحدوه ولم يخلصوا له العبادة، ويخلعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان»[1].

- سورة الفرقان فيها ثلاثة محاور أساسية كانت سببا في تسميتها بهذا الاسم وهذه المحاور هي:

- أنواع التكذيب التي لقيها النبي - صلى الله عليه وسلم- وصبر عليها.

- التحذير من سوء عاقبة المكذبين لرسلهم وما فعله الله بهم.

- تثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم – وتسليته هو وأصحابه.

وكل آيات السورة تدور هذه المحاور الثلاث بشكل واضح، ومن هنا سبب تسميتها بالفرقان، لأنها توضح - من خلال هذه المحاور الثلاثة - كيف أن الدين والقرآن هما الفرقان بين الحق والباطل.

وكان نزول هذه السورة الكريمة في وقت كان المشركون قد تمادوا في استهزائهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم -. فجاءت آياتها تثبت النبي وأصحابه وتسليهم لما أصابهم من أذى كفار قريش، وتكذب من يكذبونه.. اشتملت هذه السورة على الابتداء بتمجيد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها.

١) تفسير الطبري (٢٣٣/١٩). التفسير المنير (٥/١٩).

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن، وجلال منزله، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وجليل قدره عند الله.

أما عن مكية السورة ومدنيتها: فقال الإمام السيوطي وابن عطية ومن تبعهما من أئمة التفسير إن سورة الفرقان كلها مكية في قول الجمهور وقال الضحاك هي مدنية وفيها آيات مكية قوله تعالى: والذين لا يدعون مع الله إلها آخر»[1].

وقال الإمام الزمخشري وابن كثير ومن تبعهما من الأئمة بأن السورة الكريمة مكية إلا ثلاث آيات. هي (68 و 69 و 70).

قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠) [سورة الفرقان: ٦٨ – ٧٠]. فمدنية وقيل إن السورة مكية إلا من الآية الأولى إلى الآية الثالثة»[2].

أما عدد آياتها فسبع وسبعون آية بلا خلاف. ونزلت بعد سورة (يس) وقبل سورة فاطر)»[3].

أما عن ترتيب المصحف فإن سورة الفرقان قبل سورة الشعراء وبعد سورة النور.

---

١) تفسير ابن عطية (٤/ ١٩٩) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٤٩). بتصرف.

٢) تفسير ابن كثير (٩٢/٦) تفسير الزمخشري (٢٦٢/٣). التفسير الحديث (٣/ ٤٦). مصاعد النظر, البقاعي (٣١٦/٢).

٣) التفسير الحديث, دروزة (١٠٥/٣). الإتقان في علوم القرآن السيوطي (٩٧/١). بتصرف.

المطلب الثاني:
مناسبة السورة الكريمة لما قبله سورة النور:

- يظهر جلياً مناسبة سورة الفرقان لسورة النور قبلها من عِدة وجوه:
أهمها: أن سورة النور جاء ختامها ببيان أن الله تعالى خالق ومالك جميع ما في السموات وما في الأرض ملكا حقيقياً، فناسب هذا الختام أن بُدئت سورة الفرقان بما يتناسب مع هذا الملك وتلك القدرة على هذا الخلق من تعظيم الله - سبحانه وتعالى - الذي له ملك السموات والأرض من غير أن يكون له ولد ولا شريك في ملكه هذا.
كما بينت سورة النور وجوب الطاعة المطلقة لله تعالى، وأمر كذلك بطاعة أمر النبي - صلّى الله عليه وسلم - لأنه مرسلٌ من قِبل الله ومن ثم فطاعته هي عين طاعة الله. وضح مطلع سورة الفرقان الوصف الدقيق لدستور هذه الطاعة، وهو هذا القرآن الكريم الذي يرشد الناس لأقوم طريق وأفضلها وأنفعها للعباد.
«كما تضمنت سورة النور القول في الإلهيات، وأبانت ثلاثة أنواع من دلائل التوحيد: أحوال السماء والأرض، والآثار العلوية من إنزال المطر وكيفية تكون الثلج والبرد، وأحوال الحيوانات، وذكر في سورة الفرقان جملة من المخلوقات الدالة على توحيد الله، كمدّ الظل، وخلق الليل والنهار، وتسيير ونشر الرياح والماء، والأنعام، والأناسي، ومرج البحرين، وخلق الإنسان والنسب والصهر، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسراج والقمر ونحو ذلك مما هو تفصيل لقوله سبحانه: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فقال في

النور: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا) [النور: ٤٣]. وقال في سورة الفرقان: (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا) [الفرقان:٤٨]. ولما قال تعالى في سورة النور: (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ) [النور: ٤٥]. قال في سورة الفرقان: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا) [الفرقان: ٥٤]. وفي كلتا السورتين وصف أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة وأنها تكون مهدرة باطلة، فقال في سورة النور: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ) [سورة النور: ٣٩].

وقال في سورة الفرقان: (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾) [الفرقان:٢٣].

وشمل آخر سورة النور الكلام على فصل القضاء: وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا [64] وافتتحت سورة الفرقان بالثناء على الله عزّ وجلّ مالك الملك، وصاحب السلطان المطلق»[1].

وقال الألوسي عن علاقة سورة الفرقان بسورة النور التي قبلها: «لما ذكر الله- جل وعلا - في آخر السورة السابقة وجوب متابعة المؤمنين للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومدح المتابعين وحذر المخالفين افتتح – سبحانه - هذه السورة بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى كثرة خيره تعالى ودوامه وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا أطماعا في خيره وتحذيرا من عقابه جل شأنه وفي هذه السورة أيضا من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم – وبشريته ووجوب طاعته»[2].

١) التفسير المنير الزحيلي (٦/١٩). البرهان في تناسب سور القرآن, لابن الزبير(ص: ٢٦٠). بتصرف.
٢) تفسير الألوسي (٤٢٠/٩). بتصرف.

المطلب الثالث: ما تحدثت عنه السورة إجمالا:

- جاء حديث هذه السورة الكريمة في مجملها عن سوء عاقبة تكذيب الرسل، مصير المكذبين لذلك فإننا نرى فيها ثلاثة محاور أساسية:
- أنواع التكذيب التي لقيها النبي - صلى الله عليه وسلم- وصبر عليها.
- التحذير من سوء عاقبة المكذبين لرسلهم وما فعله الله بهم.
- تثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم – وتسليته هو وأصحابه.

وكل آيات السورة تدور هذه المحاور الثلاث بشكل واضح، فهي توضح - من خلال هذه المحاور الثلاثة - كيف أن الدين والقرآن هما الفرقان بين الحق والباطل.

و أقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات أن القرآن منزل من عند الله، والتنويه بعِظم شأن الرسول المنزل عليه - صلى الله عليه وسلم -، ودلائل الواضحة على صدقه، ورفعة شأنه، وبُعده عن أن تكون له حظوظ نفسٍ أو حظوظ دنيا، وأنه في نفس طريق إخوانه السابقين من الرسل الكرام، وهو يلقى ما لقي نفس ما لا قوه من أقوامهم من التكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء يوم القيامة، والإنذار بالجزاء في الآخرة كلٌ حسب عمله، ومن ثم البشارة بثواب المؤمنين، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ لسوء عملهم، وستكون الحسرة والندامة لتكذيبهم الأنبياء وعلى إشراكهم بالله واتباع غير سبيل المرسلين والمؤمنين.

الدعامة الثالثة: الاستدلال بالأدلة الواضحة على وحدانية الله، وتفرده

بالخلق والأمر والملك، وتنزيهه - جلّ وعلا - عن أن يكون له صاحبة أو ولد أو شريك، وإبطال عبادة الأصنام وأنها لا تملك نفعا ولا ضراً.

وقد افتتحت السورة المباركة بآيات تدل وتوضح هذه الدعامات الثلاث بقوله تعالى: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا) [سورة الفرقان: ١].

ومدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها وفي اختصاص النذير دون البشير سلوك طريق براعة الاستهلال، والإيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله ولدا وشريكا، الطاعنين في كتبه ورسله واليوم الآخر»[1].

وهذه السورة كسائر السور المكية اهتمت بأصول العقيدة من التوحيد والنبوة وأحوال القيامة. فبدأت بإثبات الوحدانية لله عزّ وجلّ، وصدق القرآن، وصحة رسالة النبي - صلّى الله عليه وسلم -، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة لا محالة، وفندت أضداد هذه العقائد، ونعت على المشركين عبادة الأصنام والأوثان، وتكذيبهم بالبعث والقيامة، وهددتهم بما سيلقون من ألوان العذاب والنكال في نار جهنم، ومفاجأتهم بما في جنان الخلد من أصناف النعيم المقيم. ثم أبانت شؤم مصير بعض المشركين الذين عرفوا الحق وارتدّوا عنه، فسمّاه القرآن بالظالم.

ثم ذكرت قصص بعض الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم لهم، وما حلّ بهم من نكال ودمار وهلاك بسبب تكذيبهم رسل الله، كقوم نوح،

١) التحرير والتنوير (٣١٤/١٨). فتوح الغيب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٦٨/١١). بتصرف.

وعاد، وثمود، وأصحاب الرّس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين الطغاة.

وأوردت السورة الأدلة على قدرة الله ووحدانيته، مما في الكون البديع من عجائب صنعه، وما في الأرض من آثار خلقه في الإنسان، والبحر، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، وإنزال الأمطار وإرسال الرياح مبشرات بالمطر، وجعل البروج في السماء، وتعاقب الليل والنهار.

ثم ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن المخلصين الموقنين، وما يتحلون به من أخلاق سامية وآداب رضية، تجعلهم يستحقون بها إكرام الله تعالى وثوابه الجزيل في جنات النعيم[1].

١) التفسير المنير (٧/١٩). مصاعد النظر، ابراهيم بن عمر البقاعي (٣١٧/٢). تفسير المراغي (١٤٦/١٨).

المبحث الأول
الالتفات في الضمائر في
سورة الفرقان

المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى:
(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾)[سورة الفرقان: ٤٥].

المعنى العام للآية الكريمة:

يقول ابن كثير وغيره من المفسرين «شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة. فلما بين تعالى جهل المعترضين على دلائل الصانع - سبحانه وتعالى- وفساد طريقتهم ذَكرَ بعد ذلك أنواعا من الدلائل الواضحة التي تدل على قدرته التامة والمطلقة لعلهم يتدبرونها ويؤمنون بمن هذه قدرته وتصرفه في عالمه، فبدأ بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال وأن ذلك جارٍ على مشيئته.

والمعنى ألم تر إلى صنيع ربك الذي يدل على كمال قدرته، ومنتهى رحمته حيث مد الظل وبسطه، أو قبضه وقلله، والظل إنما هو نعمة من الله على الناس جميعا، إذ الحياة والدفء من نور الشمس، ولكن قد يبهر العين، ويجلب الحر، ويقتل النفس. وفي الظلام السكون والهدوء، ولكن النفس لا تألفه، والطبع السليم يأباه، فكان من نعم الله علينا الظل وسطا بين النور والظلام، وجاء وصفا للجنة حيث كانت ذات ظل ممدود، ومن هنا ندرك السرّ في تفسير بعض العلماء للظل بأنه الوقت من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس إذ هو وقت الهدوء والسكون والراحة

النفسية، والجو الصافي، وقت النشاط الروحي والصفاء النفسي. كما أن للظل مكانة عند العرب.

ولو شاء ربك لجعل الظل ساكنا ثابتا لا يزول، ومن هنا يذهب رواؤه، ويقل تأثيره، إذ تأثيره الطبعي والمعنوي في ذهابه وحضوره ووجوده وانعدامه وكثرته.

والظل أمر لا يعرف ولا يدرك إلا بالشمس، ثم جعل الله الشمس عليه دليلا فكأن الله- سبحانه- خلق الظل أولاً، ثم جعل الشمس دليلا على وجود هذه النعمة الجليلة ذات الأثر الفعال في الإنسان والحيوان والنبات.

أليس في وجود الظل ثم تحركه وتغيره، وانتقاله من حال إلى حال ثم جعل الشمس كما ذكر الله تعالى أليس دليلا على وجود ربنا وأحقيته بالعبادة؟»[1].

فالحق سبحانه وتعالى وهو خالق الآيات في الكون ينبه إليها الخلق، وكان من المفروض ممن يرى الآيات أن يتنبه إليها دون أن ينبه، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأملها، ففي الكون آيات كان يجب أن تشد انتباهك لتبحث فيها وفي آثار وجودها وكلها آيات عالية عنا وفوق إمكاناتنا: الشمس والقمر، الهواء والمطر.. إلخ. ومع ذلك لم يتركك الله؛ لأن تتنبه أنت، بل نبهك ولفتك وجذب انتباهك لهذه ولهذه.

والخطاب، وإن كان للنبي- صلوات الله وسلامه عليه- فإنه خطاب عام لكل من يستجيب لهذا النداء العلوي، ويلقاه بقلب سليم، ونظر مستقيم.

١) تفسير ابن كثير (١١٣/٦). تفسير المراغي (٢٣/١٩). بتصرف.

والاستفهام، إنما يراد به الأمر بالنظر في هذه الظاهرة، التي تحدثت عنها الآية الكريمة، ولفتت الأنظار إليها. وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة متصل بقوله في أول وتوجيه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -يقتضي أن الكلام متصل بنظيره ثم جعلنا الشمس عليه دليلا فإن حال الناس في الضلالة قبل نزول القرآن تشبه بحال امتداد ظلمة الظل، وصار ما كان مظللا ضاحيا بالشمس وكان زوال ذلك الظل تدريجا حتى ينعدم الفيء.

فنظم الآية بما اشتمل عليه من التمثيل أفاد تمثيل هيئة تنزيل القرآن منجما بهيئة مد الظل مدرجا ولو شاء لجعله ساكنا. وكان نظم الآية بحمله على حقيقة تركيبه مفيدا العبرة بعد الظل وقبضه في إثبات دقائق قدرة الله تعالى، وكان نظم الكلام بمعنى ما فيه من الاستعارة التصريحية من تشبيه الهداية بنور الشمس، وتقلص ضلال الكفر بانقباض الظل بعد أن كان مديدا قبل طلوع الشمس»[1].

وقال الإمام الشوكاني – رحمه الله – « في قوله تعالى «(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا) أشار إلى عِظَم المقام وعُلوّ الرتبة وذلك بحرف الغاية مع أقرب الخلق منزلة وأعلاهم مقاما فقال: {إلى ربك} أي المحسن إليك، والأصل: إلى فعله؛ وأشار إلى زيادة التعجب من أمره بجعله في معرض الاستفهام فقال: {كيف مد الظل} وهو ظلمة ما منع ملاقاة نور الشمس.

{ولو شاء لجعله} أي الظل {ساكنا} بإدامة الليل لا تذهبه الشمس

١) تفسير الشعراوي (١٠٤٥٥/١٧). التفسير القرآني للقرآن (٣٢/١٠). التحرير والتنوير (٣٨/١٩).

كما في الجنة، ولكنه لم يشأ ذلك بل جعله متحركا بسوق الشمس له. وجعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ولما كان إيجاد النهار بعد إعدامه، وتبيين الظل به غياب إبهامه، أمرا عظيما، أشار بأداة التراخي ومقام العظمة فقال: {ثم جعلنا بعظمتنا الشمس دليلا عليه، أي يدور معها حيثما دارت، فلولا هي ما ظهر أن لشيء ظلا، ولولا النور»[1].

- مما سبق هذه الآية الكريمة بين الله - سبحانه – وتعالى مدى جهالة وجهل هؤلاء الكافرين المعرضين عن كل ما يرونه مما هو من أعظم من الآيات العظيمة التي هي من دلائل توحيد الله، وبين الله كذلك سخيف مذاهبهم وآرائهم الفاسدة في ربهم الخالق الرازق لهم وكان الأحرى بهم أن يؤمنوا به، لكنهم تعدّوا وأبَوا وعبدو غيره - جلّ في علاه – كما ذكرت الآيات أيضاً ما كان منهم في تكذيبهم لأنبيائهم وبيان مصير المكذّبين في الدنيا وكذلك في الآخرة. أعادت الآيات الكَرّة مرة أخرى، فذكرت أدلة خمسة على وجود الله وأحقيّته بالعبادة واللجوء إليه في كل شيء هذه الأدلة التي نراها عياناً بياناً، وتتوارد علينا في الليل والنهار، لهي أعظم دليل على وجود الإله القادر الخالق الحكيم – سبحانه وتعالى – والواجب على الجميع الإيمان به وحده، لهذا شرعت هذه الآية لبيان أحد هذه الأدلة الخمسة وهذا الدليل هو قدرة الله على مدّ الظل وبسطه، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله ساكنا لا يتحرك، كذلك جعل الله على هذا دليلا واضحاً هو وجود الشمس التي تنير الأرض

١) فتح القدير للشوكاني (٩٢/٤). نظم الدرر (٣٩٧/١٣). بتصرف.

ويراها الجميع بلا شكٍّ ولا ريب. فيقول - جل ذكره - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ يا محمد ويا كل مخاطَب يصلح للخطاب انظر إلى ربك – سبحانه– كيف مدّ الظلّ الذي هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كيف مده بهذا النظام العجيب، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ولو شاء الله – وحده لا غيره، لجعله دائما لا يزول، ممدودا لا تُذهِبُه الشمس، ولا تُنقِصه ولا تُضيع منه شيء ولو قليل، ثم دللناكم أيها الناس جميعاً بنسخ الشمس لهذا الظلّ عند طلوعها عليه، هذا دليل واضح لكل ذي عينين على أنه خلق الله الواحد الخالق سبحانه الذي يستحق العبادة وحده دون سواه، يوجده متى شاء، ويفنيه إذا أراد.

موضع الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الذي جاء بضمير التكلم في قوله تعالى: (جعلنا) إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ الذي جاء بضمير الغيبة في قوله تعالى: (لجعله) الذي جاء بضمير الغيبة. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ثم جعل الشمس) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات من الغائب إلى المتكلم، وذلك لسرٍّ بلاغي هو الشرف والعظمة من الله بقدرته الغير متناهية، وحكمته العظيمة في الصُّنع والتدبير للبشر مما يدع البشر إلى عبادته تعالى ولكنهم لم يؤمنوا حتى بعد هذه الدلائل الواضحة.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- المتأمل في الآية يجد أن سبب الالتفات من الغيبة إلى التكلم، هو دلالة عظم القدرة الإلهية، وتناهي الحكمة الربانية في الخلق والصُّنع، وتدبير شئون الكون كما أن في ذلك بيان الامتنان بهذه النعمة العظيمة على خلقه ليعبدوه لا ليعبدوا غيره.

أقوال العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

يقول الإمام ابن عاشور – رحمه الله - « في قوله: ثم جعلنا الشمس عليه دليلا عطف على جملة مد الظل، والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ثم جعلنا لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات وعليه فقوله تعالى: ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ارتقاء في المنة»[1].

الالتفات من الغيبة إلى التكلم إنما جاء للتعظيم والامتنان. فالالتفات إلى نون العظمة هو للإيذان بعظم قدرة هذا الجعل لما يستتبعه من المصالح التي لا تحصى أو لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الظل والشمس من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد الدلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة»[2].

يقول الإمام أبو السعود في قوله تعالى:

(ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا عَلَيْهِ) عطف على مدّ الظل وداخل في حكمه أي جعلناها علامةً يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسبما نطق به الشرطية المعترضة

١) التحرير والتنوير (٤١/١٩). بتصرف.
٢) التفسير المنير للزحيلي (٧٧/١٩). تفسير الألوسي (٢٨/١٠).

والالتفات إلى نون العظمة لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر في إيراد كلمة التراخي»[1].

****

١) تفسير أبي السعود (٦/٢٢٢). بتصرف.

المطلب الثاني: من الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤٨].

معنى الآية إجمالاً:

- جاءت هذه الآية الكريمة كما سابقتها جاءت تعقيبا على أقوال الكافرين وشدة مكابرتهم في ربوبية الله - تعالى - والدعوة إليه ومناوأة رسوله محمد– صلى الله عليه وسلم – وسؤاله معجزات لأجل التعجيز، وإنكارهم البعث والحساب كما أنكر السابقين من الكافرين المكذبين لأنبيائهم، وذلك جريا على الأسلوب البلاغي القرآني وذلك برهاناً واضحاً على وجود الله تعالى وقدرته التي لا منتهى لها، وعظمته بما في نواميس الكون من إتقان بديع، وإبداع متقن، ومنافع جليلة للبشرية. فهي متصلة اتصالاً وثيقا بالسياق القرآني هنا في هذه الآية أيضا.

وهي قد احتوت تنبيها واضحاً بالنظر إلى النواميس الكونية التي جعلها الله في الحركة الموجودة في كل من الليل والنهار والشمس والظل وكل ما فيه من مصالح ومنافع ظاهرة للعيان ومتنوعة للناس، كذلك النظر إلى إرساله-تعالى - للرياح وفيها مدى التبشير برحمته – سبحانه – وكذلك إنزاله من السماء الماء الطهور الذي يحيي الله به الأرض الميتة، والذي يروي منه الناس وأنعامه، كما جاء فيها معنى التقرير ولفت أنظار المشاهدين من البشر لأمر أو مشهد مُسَلّم به وذلك على سبيل الاستدلال والاستشهاد على قدرة الله اللامتناهية.

«فقد بين أن الله هو وحده الذي أرحم بعباده من أنفسهم، ولذلك أغدق الله عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وأهم هذه الرحمات المطر فثار بها السحاب وتألف وصار كسفا وألقحته وأدرته بإذن آمرها- سبحانه وتعالى - والمتصرف فيها حتى يقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة. فقال - جل شأنه - (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) طاهراً يُطَهّر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتا فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، أليس الذي أرسل الرياح المبشرات وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورا مباركا فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟ فلما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه مع ذلك أبي أكثر الخلق إلا كفورا، لفساد أخلاقهم وطبائعهم»[1].

- إن الله هو الذي أرسل الرياح الملقحة وذلك بُشْراً من الله وحده وحياة وأنزل - سبحانه وتعالى - من السحاب الذي يجري ويحمل الماء فيه، أنشأه الله وحمله بالرياح من فوق البشر والجميع يراه، وكان فيه الماء الطهور.

يقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله – «وفي هذه الآية استدلال على انفراد الله بالخلق وامتنانه على عباده بتكوين الرياح والسحب والمطر، وأطلق على تكوين الرياح فعل أرسل الذي هو حقيقة في بعث شيء

١) تفسير السعدي (ص: ٥٨٤). التفسير الحديث (٨٨/٣). بتصرف.

وتوجيهه، لأن حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق. وهذا الاستدلال بدقيق صنع الله في تكوين الرياح حتى يعتبر الخلق جميعا ويرجعوا إلى ربهم، ثم إن الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكون الأسحبة وتؤذن بالمطر فلذلك وصفت بأنها نشر بين يدي المطر والمراد هنا المطر الذي يسبق رحمة الله، والمعنى؛ أي: والله الذي أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار»[1].

ويقول الإمام البقاعي- رحمه الله – «لما دلل - سبحانه وتعالى - على عظمته بتصرفه في المعاني بالإيجاد والإعدام، وختمه بالإماتة والإحياء بأسباب قريبة معروفة لجميع البشر، أتبعه بالتصرف في الأعيان بمثل ذلك، دالًّا على الإماتة والإحياء، فكان الحديث عن الريح التي تحمل السحاب الذي يكون فيه الماء فتمطر حيث يشاء الله. ولما كان في إنزاله من الدلالة على العظمة بإيجاده هنالك وإمساكه ثم إنزاله في الوقت المراد والمكان المختار على حسب الحاجة ما لا يخفى، غير الأسلوب مظهرا للعظمة فقال: (وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا) والسماء هنا جهة العلو أي حيث لا ممسك للماء فيه غيره سبحانه ثم أراد بيانا للنعمة به فقال: {طهورا} أي طاهرا في نفسه مطهرا لغيره. وإنه في الشريعة يطهر الإنسان طهارة حسية بإزالة الأنجاس الحسية»[2].

موضع الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) الذي جاء بضمير التكلم في قوله تعالى: (وأنزلنا) إلى قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِيَ

١) تفسير الشعراوي (١٠٤٦٣/١٧). تفسير حدائق الروح والريحان (٥٣/٢٠). بتصرف.
٢) نظم الدرر (٤٠٠/١٣). زهرة التفاسير (٥٢٩٢/١٠). تفسير القاسمي (٤٣٠/٧). بتصرف.

أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا) الذي جاء بضمير الغيبة في قوله تعالى: (وهو الذي) الذي جاء بضمير الغيبة. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وأنزل) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الغيبة إلى التكلم، وذلك لبيان وكمال قدرة الله وعنايته بعباده.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات من الغيبة إلى التكلم، هو دلالة عظم القدرة الإلهية المطلقة. وتناهي الحكمة الربانية في الخلق والصُّنع، وإبراز كمال العناية الإلهية بإنزال المطر الذي هو روح الحياة على الأرض، وكذلك لإظهار آثار الربوبية في تيسير سبيل المعيشة للعباد والأنعام واستقرار الحياة ويناسب ذلك العظمة التي تكون في التكلم على وجه التفضل من الله والتمنّن على عباده كما هو مقرون بما يظهر هذه الآثار ويجعلها مهيعا يومئ به إلى استحقاقه – جلّ وعلا - للألوهية وكمال الربوبية ومستحق للعبادة وحده دون سواه.

أقوال العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

ويقول العلامة ابن عاشور «وجملة (وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا) عطف على جملة (أرسل الرياح) إلخ، فهي داخلة في حيز القصر، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهورا. وضمير (أنزلنا) التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأن التكلم أليق بمقام الامتنان»[1].

ولقد تفطن جماعات من العلماء إلى هذا الموطن العزيز من مواطن الالتفات، وقالوا إن توصيف إنزال الماء به إشعار بالنعمة فيه، وتتميم

١) التحرير والتنوير (٤٧/١٩)، تفسير المراغي (٢٤/١٩). بتصرف.

للمنة فيما بعده. ففي الآية عدول عن ضمير الغيبة في أرسل الرياح، إلى ضمير التكلم في (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا)[1].

ويقول الشيخ أبو السعود «والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) لإبراز كمال العناية بالإنزال لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح. والمعنى أنزلنا الماء بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح ومن جهة الفوق ماء بليغا في الطهارة ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهورها فبواطهم أحق بذلك وأولى»[2].

ويقول العلّامة الألوسي – رحمه الله – «والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: وأنزلنا من السماء ماءً لإبراز كمال العناية بالإنزال لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح أي أنزلناه بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة العلو التي ليست مظنة الماء أو من السحاب أو من الجرم المعلوم»[3].

****

١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية, حسن طبل (١١٥). تفسير القاسمي (٤٣١/٧).
٢) تفسير أبي السعود (٢٢٤/٦). صفوة التفاسير, الصابوني ، (٤١٤/٢).
٣) تفسير الألوسي (٣٠/١٠).

المطلب الثالث: عن الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾) [سورة الفرقان: ٣١].

معنى الآية أجمالاً:

- بعد أن ذكر الله تعالى المقالات الباطلة التي يقولها الكافرون لرسلهم، ومدى شدتهم وتعنتهم الزائد عن الحدّ وظلمهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وطلبهم معجزات لا ليؤمنوا بل من باب التعجيز للنبي وإظهارهم العداوة الشديدة في كلامهم وطلباتهم. وكان مما قالوه وطلبوه منه أقوالهم التي ذكرها القرآن الكريم مثل قوله تعالى: (وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾) [سورة الفرقان: ٧]. كلامهم ما أشد غرابته، وما أشد بعده عن الحقائق، فهو بشرٌ مثلهم ولكنهم يعيبون عليه أن يأكل ويشرب، أو أن يمشي في الأسواق كما هم يفعلون لأنهم بشر. كما طلبوا كذلك من الرسول إرادة تعجيزه قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ) [الفرقان: ٢١].

كما قولهم في القرآن الكريم.

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ) [سورة الفرقان: ٤].

وقولهم في القرآن كذلك.(وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥) [سورة الفرقان: ٥].

ومن ثم أعقب ذلك بشكاية الرسول- صلى الله عليه وسلم - إلى ربه - سبحانه وتعالى - بأن قومه قد هجروا كتابه الكريم، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم، ورعاية لمصالحهم وما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، ثم جاءت التسلية من الله - سبحانه - لنبيه الكريم، وبيان أن هذا العمل لم يكن دأب قومك فقط، بل إن كثيرا من إخوانك السابقين من الأنبياء ساروا في هذا الدرب الشريف، الذي هو طريق الأنبياء جميعاً. يقول تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - (وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا) [سورة الفرقان: ٣١]. فسيكون لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك كان لكل من الأنبياء من قبلك أعداء من مشركي قومه، فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا.

.ها هم الكفار قد هجروا القرآن

الذي نزله الله على عبده محمد – صلى الله عليه وسلم – لينذرهم، ويبصرهم. لكنهم هجروه فلم يفتحوا له أسماعهم إذ كانوا يتقون أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه رداً. وهجروه فلم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله، ويجدوا الهدي على نوره، وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم، وقد جاء ليكون منهاج حياة يقودها إلى أقوم طريق. قال تعالى: (وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠) [الفرقان: ٣٠]. وإن ربه ليعلم ولكنه دعاء البث والإنابة،

يشهد به ربه على أنه لم يألُ جهدا، ولكن قومه لم يستمعوا لهذا القرآن ولم يتدبروه.

- بعد كل ما لاقاه النبي من أعدائه وأعداء القرآن الذين لم يتبعوا هديه ولا طريقه طريق النور والجنة والنعيم الذي لا يزول في الدنيا والآخرة لذلك جاءت التسلية له – صلى الله عليه وسلم – من ربه وتعزيته ويخبره بأن هذه هي السُّنة الجارية من قبله في جميع الرسالات ومع جميع الرسل، فكان لكل نبي منهم أعداء وخصماء كانوا يهجرون الهُدى الذي يجيئهم به أنبيائهم، وكانوا يصدون عن سبيل الله بكل ما أُوتوا من قوة. ولكن لا تُتعب نفسك يا محمد ولا تحزن عليهم فالله وحده يهدي من يشاء إلى الطريق المستقيم، كما أنه وحده هو الذي هدى رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين، وهو وحده الذي يحفظهم من هؤلاء المكذبين. وهذه سنة الله في إرسال الرسل وإهلاك ومعاقبة المكذبين قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾) [سورة الفرقان: ٣١]. ولله الحكمة والحجة البالغة، فإن وقوف المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات الصالحة لا تهزمها بل يُقوي هذا الإجرام من الأعداء عودها ويطبعها بطابع الجدّ الذي لا هزل فيه بما يناسب طبيعة هذه الدعوات، كما أنه من المعروف شرعا وعقلاً أن كفاح أصحاب الدعوات الحقّة الصحيحة لهؤلاء المجرمين الذين يتصدون لها، هو أهم وأجلّ ما يميز هذه الدعوات الحَقّة من الدعاوى الزائفة وكذلك هو ما يُمحص القائمين عليها، ويُبعد الزائفين منهم من طريقها ومن ثم فلا يبقى فيها إلا

العناصر المؤمنة القوية الإيمان المتجردة لدعوتها، التي لا تبتغي مغانم قريبة، بل تبتغي بها وجه الله تعالى.

«ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون، لسَهُلَ على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل، ووقعت البلبلة والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا. فلا يكافح ويناضل، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون، الذين يؤثرون دعوتهم الحقّة على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا، وأشدهم إيمانا، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل. وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء. وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها، واجتازوا امتحانها وبلاءها. أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته. وقد نالوا النصر بثمنه الغالي، وأدوا ضريبته صادقين»[1].

«ولما كان في هذا الكلام معنى الشكاية وشدة التحرق، وعظيم الحزن كما يشير إليه إثبات الـ(يا) التي للبعد، على خلاف ما جرت به العادة في نداء الخواص الذين هو أخصهم، والاستفهام عن سبب هجرانهم مع ما لهم إليه من الدواعي، فكأن القرآن يقول لا تجزع أيها الرسول من إيذاء

قومك لك فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، واصبر كما صبروا، ثم وعده بالهداية والنصر والتأييد وغلبته لأعدائه. وكفاك ربك هاديا لك إلى مصالح الدين، وكذلك هداية من اتبعك، وآمن بكتابك وصدقك، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. ولما كان موطنا تعلق فيه النفوس متشوقة إلى الهداية بعد هذا الطبع، والنصرة بعد ذلك الجعل، كان كأنه قيل: لا تحزن فلنجعلن لك وليا ممن نهديه للإيمان، ولننصرنهم على عدوهم كما فعلنا بمن قبلك»[1].

موضع الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا) الذي جاء بضمير التكلم في قوله تعالى: (وجعلنا) إلى قوله تعالى: (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) الذي جاء بضمير الغيبة في قوله تعالى: (وكفى بربك) الذي جاء بضمير الغيبة. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وكفى بنا) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن التكلم إلى الغيبة، وذلك لتسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – وكل من سار على طريقه من الصحابة ومن بعدهم.

سبب الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وذلك لتسليته – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه الكرام وكل من سار على طريقهم ممن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة وإيماء لهؤلاء السائرين على نهجهم من أن الحافظ لهم هو الله كما أن الهادي

١) نظم الدرر (٣٧٧/١٣). تفسير المراغي (١٠/١٩). بتصرف.

والناصر لهم هو الله وحده، في هذا كفاية ووقاية للمؤمنين فلا ييأسوا ولا يخافوا من أحد.

أراء العلماء في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

يقول الرازي « وفيه تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث أنه تعالى قال مسليا لرسوله ومعزيا له إن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، وأن له بذلك أسوة بسائر الرسل قبله، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبر إخوانه من الرسل»[1].

«والظاهر أن دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ربه وإخباره بهجر قومه قريش للقرآن هو مما جرى له في الدنيا بدليل إقباله عليه مسليا مؤانسا بقوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وأنه هو الكافي في هدايته ونصره فهو وعد منه بالنصر وهذا القول من الرسول وشكايته فيه تخويف لقومه»[2].

ويقول الإمام الزمخشري والشوكاني – رحمهما الله – «وهذا القول يقوله الرسول يوم القيامة وقيل: إنه حكاية لقوله - صلى الله عليه وسلم – هذا في الدنيا لذلك هذا تسلية من الله - سبحانه وتعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم -، والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله عدوا يعاديه من مجرمي قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك واصبر كما صبروا وكفى بربك هاديا ونصيرا، ومن ثم أقبل عليه مسليا ومواسيا وواعداً إياه بالنصرة عليهم في الدنيا، فقال وكذلك كان كل نبي قبلك مبتلىً بعداوة قومه له، وكفاك بربك هاديا إلى طريق

١) تفسير الرازي (٢٤/٤٥٥). بتصرف.
٢) البحر المحيط في التفسير (٨/ ١٠٢).

قهرهم في الحرب، والانتصار عليهم، وناصرا لك عليهم»[1].

ويقول ابن عاشور: وفي هذه تسلية له - صلى الله عليه وسلم - بأن ما لقيه من بعض قومه هو سُنة من سنن الأمم مع أنبيائهم. كما أن فيه تنبيه للمشركين ليعرضوا أحوالهم على هذا الحكم التاريخي ويعلموا أن حالهم كحال من كذبوا من السابقين»[2].

وقال الألوسي « (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ) فيه تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم السلام، والبلية إذا عمت هانت - كما يقولون -، والعدو يحتمل أن يكون واحدا وجمعا أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل، جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوا من مرتكبي الجرائم والآثام. وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾) وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أي كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هاديا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك وإجراء أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتاب أجله وناصرا لك عليهم على أبلغ وجه»[3].

- وفي ضوء ما سبق من أقوال علماء التفسير نجد أن في هذا تسلية لنبينا- صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكرام، وفيه إيماء لمن سار

١) فتح القدير للشوكاني (٨٥/٤). بتصرف. تفسير الزمخشري (٢٧٧/٣).
٢) التحرير والتنوير (١٧/١٩). بتصرف.
٣) تفسير الألوسي (١٥/١٠). بتصرف.

على دربه ونهجه، وبيان لطمأنتهم بأن الحافظ والهادي لهم هو الله وأنه الناصر لهم وحده، فلا يبتئس المؤمن من عدو له فإن الله هو من يهديه ومن يهد الله فلا مضل له.

****

المطلب الرابع: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة الفرقان: ١٧ – ١٩].

معنى الآية أجمالاً:

- بعد أن ذكر ربنا – سبحانه وتعالى- ما أعده لهؤلاء الذين كذبوا برسل الله وكذبوا بيوم القيامة وما فيه من الشدائد والأهوال التي يكونون فيها، وجهنم التي تنتظرهم، وكثرة دعائهم على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك لما وصلوا إليهم من العذاب بسبب عصيانهم رسلهم. أردف هذا بذكر أحوالهم وحوارهم مع معبوداتهم التي كانوا يعبدونهم من دون الله ومن ثم توبيخهم أشد التوبيخ على عبادتهم الباطلة لمن عبدوهم من الحجارة وغيرها، ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم يوم القيامة فيما نسبوه إليهم، ثم أعقب ببيان أن هؤلاء العابدين لا يستطيعون إبعاد العذاب عن أنفسهم ولا يجدون من يستنصرون به، وإن أصعب الأشياء على نفس الإنسان في تحقيق مراده هو خيبة آمله، وانقطاع رجائه، وانعدام النصير لتحقيق المطلوب، وهذا ما أخبر الله - تعالى به عن مفاجأة

الكفار بكل هذا الإحباط يوم القيامة، حيث حشروا مع آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وبدأت مناقشتهم من الله أمامهم عمن أضل الآخر، فيتبرأ أولاً المعبودون ممن عبدوهم من الأتباع، وكذلك يتفاجأ العابدون بأنهم ليس لهم نصير من دون الله لهم، وهذا ما حكاه الله تعالى مصورا هذا الموقف الأليم على النفس.

يقول الدكتور الزحيلي - رحمه الله - «وهذا مشهد من مشاهد القيامة، يتميز بالمواجهة الفعلية بين العابدين والمعبودين، ويتم فيه تقريع الكافرين في عبادتهم. والمعنى: اذكر أيها النبي الكريم لأولئك المشركين عندما يجمعهم الله يوم القيامة مع معبوديهم من الإنس، والملائكة، والأصنام التي ينطقها الله، فيقال للمعبودين على سبيل التقرير والتثبيت. يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال حقا، أم هم ضلوا السبيل الصحيح بأنفسهم، وعبدوكم من أنفسهم، دون توجيه أو دعوة منكم لهم؟! وقوله تعالى: {وما يعبدون} يراد به كل شيء عُبِد من دون الله، فغلب العبارة عما لا يعقل من الأوثان، لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

وظاهر السؤال: في {أأنتم} من الله تعالى، ويحتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى. فأجاب المعبودون بلسان المقال أو الحال على طريق التعجب مما سئلوا عنه: قائلين {سبحانك}. أي تنزيها لك يا رب مما نسبه إليك المشركون، وما كان يصح لنا بحال أن نتخذ أنصارا من دونك، فنحن الفقراء إليك، وليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك، فنحن ما دعوناهم إلى عبادتنا، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن أبرياء منهم ومن عبادتهم، ولكن

طال عليهم العمر، وانشغلوا بالتمتع باللذات والشهوات، هم وآباؤهم، حتى نسوا ما أنزلته إليهم على لسنة الرسل من الدعوة لعبادتك وحدك لا شريك لك، وكانوا قوما لا خيرا فيهم، وهلكى لا نجاة لهم. فيقول الله تعالى للعابدين: لقد كذبكم الذين عبدتموهم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء مناصرون، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، فلا يقدرون، أي الآلهة المزعومة على صرف العذاب عن العابدين، ولا الانتصار لأنفسهم بحال من الأحوال.

وقوله تعالى: فما تستطيعون أيها العابدون غير الله رد التكذيب أو العذاب، ولا مناصرة أنفسكم بنصير ما. ثم جاء الخطاب من الله للكفار أو لجميع المكلفين بقوله: ومن يظلم منكم.. أي ومن يشرك بالله»[1].

موضع الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) الذي جاء بضمير الغيبة في قوله تعالى: (يحشرهم - ويعبدون) إلى قوله تعالى: (فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا) الذي جاء بضمير الخطاب في قوله تعالى: (كذبوكم – تقولون - تستطيعون) الذي جاء بضمير الخطاب. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فقد كذبوهم بما يقولون فما يستطيعون) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب، وذلك مبالغة من الله في تبكيتهم وتقريعهم ولومهم بما يتناسب مع أفعالهم القبيحة.

١) التفسير الوسيط للزحيلي (١٧٨٨/٢). بتصرف.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- إن المتأمل في الآية يجد أن سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب، المبالغة في تبكيت المكذبين وتقريعهم ولومهم على ما فعلوه من عبادة غير الله الخالق الرازق مالك الملك. وهذا يناسبه أسلوب الخطاب إذ يكون الكلام متوجها مباشرة إليهم بلوم المراد لومه وفي هذا أشد التأنيب وأوقعه أثرا ونكالا في نفس المخاطب.

أراء العلماء في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

يقول العلّامة الزمخشري «هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات من الغيبة للخطاب. والخطاب على العموم للمكلفين. والعذاب الكبير لا حق بكل من ظلم، والكافر ظالم»[1].

ويقول العلامة الألوسي: وقوله تعالى: ﴿فقد كذبوكم﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجهه إلى العبدة مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك: قد كذبكم المعبودون أيها الكفرة والخطاب عام والظلم الكفر ومن يظلم مظهر أقيم مقام المضمر تنبيها على توغلهم في الكفر وتجاوزهم حد الإنصاف والعدل إلى محض الاعتساف والجدل فيما رموا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان الأصل فلا يستطيعون صرفا ولا نصرا ونذيقهم عذابا كبيرا أو نذيقكم على اختلاف القراءتين والحمل على من يدم على الظلم منكم ليختص الخطاب بالكفار صحيح أيضا ولكن تفوته النكتة التي

١) تفسير الزمخشري (٣/٢٧١). بتصرف.

ذكرناها انتهى»[1].

وقال ابن عاشور «وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكيّ واقعا، فجملة فقد كذبوكم إلخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة يوسف: 29]. { فجاء بقوله: واستغفري لذنبك بعد قوله: يوسف أعرض عن هذا}. والباء في قوله: بما تقولون يجوز أن تكون بمعنى (في) للظرفية المجازية، أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، ويجوز أن تكون للسببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.

و (ما) موصولة. والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم. وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم. فعلى هذه القراءة التي بتاء الخطاب، يكون على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله. وفي قوله: {ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا}. تذييل للكلام يشمل جميع الناس، ويكون خطاب منكم لجميع المكلفين»[2].

وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين أنه تعالى التفت إليهم بصيغة الخطاب

١) تفسير الألوسي (٤٤٢/٩). بتصرف.
٢) التحرير والتنوير (٣٤٢/١٨). بتصرف.

يقول سبحانه: {ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا} وقد يسأل سائل: لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف؟ قالوا: في الواقع ليس هذا العنف نهرا لأولياء الله، إنما زجر ولفت نظر للآخرين، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف، فما بالك بأعدائه، والخارجين على منهجه؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بد أن يقولوا: مع أن الله اصطفاهم وقربهم لم يمنعه ذلك أن يوجههم إلى الحق وينهرهم. كأنه يقول للمشركين هذا الكلام من قِبَلِ الحق تفضيحا لهم وإلزاما وتبكيتا»[1].

«يقول أبو السعود كذلك في قوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه إلى العبدة مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة (بما تقولون) أي في قولكم إنهم آلهة فالقول هنا إن كان للكفار فهو بطريق الالتفات ويكون احتجاج من الله تعالى على العَبَدة مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم»[2].

الخطاب للكفار من باب المبالغة في تبكيتهم ولومهم بأشد ما يكون لكفرهم بربهم وهم يعلمون أنه هو المستحق للعبادة دون سواه. وهذا أنسب شيء في الخطاب إذ يكون الكلام متوجها مباشرة إلى الملوم وفي هذا أشد التأنيب وأوقعه أثرا ونكالا.

****

١) تفسير الشعراوي (١٠٣٩٦/١٧). بتصرف. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٢٤/٢).
٢) البحر المديد (٨٤/٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٠٩). بتصرف.

المطلب الخامس: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣)[سورة الفرقان: ٣٢- ٣٣].

معنى الآية أجمالاً:

- يحدثنا القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة عن القرآن وعن كيفية نزوله، وذلك بعد ذِكْر مطاعنهم في القرآن الكريم فيما سبق من الآيات كقولهم:

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ) [سورة الفرقان: ٤].

كما تحدثت الآية التي بعدها عن أقوال الكافرين في القرآن وأنه محض افتراء وأنه أساطير الأولين، كما يقولون هم وقد تحدث القرآن عن كذبهم هذا فقال تعالى:(وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا) [سورة الفرقان: ٥]. أعقب ذلك بذكر شبهة أخرى من شبهاتهم الكاذبة وهي قولهم: لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة بدلا من نزوله مفرقاً كما أنزلت الكتب السابقة مثل التوراة التي نزلت على موسى وكذلك الإنجيل الذي مرة واحدة على عيسى والزبور الذي أعطاه الله لداود - عليهم السلام جميعاً -، فرد الله عليهم مقالتهم الباطلة، وبين لهم الفوائد الجليلة من إنزاله مفرّقاً، والتي من بينها تثبيت فؤاد النبي

– صلى الله عليه وسلم – ومنها تيسير حفظه لمن أراد ذلك، وكذلك فهم معانيه أولاً بأول.

ويقول الشوكاني: «إن من حكمة نزول القرآن منجما، منها تثبيت فؤاده - صلى الله عليه وسلم - بتيسير الحفظ، وكذلك فهم المعنى المطلوب لدى البعض، وضبط الألفاظ، إلى نحو ذلك، ثم وعده بأنهم كلما جاء الكفار بشبهة دحضها الله بالجواب الحق، والقول الفصل الذي يكشف عن وجه الصواب، وهذا لمن أراد أن يفهم القرآن. فالقرآن يصور لنا شبهات هؤلاء الكافرين وما قالوه عن القرآن وأنهم يعيبون نزوله مفرقا ويقولون لماذا لم ينزل جملة واحدة، كانت هذا بعضاً من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم. ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: إنا أنزلنا القرآن مفرقا، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم، أي: مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه، واقترحوا خلافه، فإن إنزاله مفرقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، لنثبت به فؤادك على معنى أنزلناه عليك متفرقا لهذا الغرض. وهذا من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم ورتلناه ترتيلاً»[1].

«لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة الإسلام، وينشئ مجتمعا فريداً، ويقيم نظاماً حقيقيا ينفع الدنيا كلها. والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة، فها هو القرآن جاء للبشرية بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها. فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة،

١) تفسير المراغي (١٢/١٩). بتصرف.

وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق. جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليكون كتاب ثقافة. جاء ليُنَفَّذ حرفا حرفا وكلمة كلمة، وتكليفا تكليفا. جاء لتكون آياته هي الأوامر اليومية التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها. من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلا. يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويثبته على طريقه ويتتابع على مراحل الطريق رتلا بعد رتل، وجزءا بعد جزء: {كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا}. والترتيل هنا هو التتابع والتوالي وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقي» .

موضع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ التفات عن الغيبة في قوله تعالى: (وقال الذين كفروا) الذي بصيغة الغائب إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ﴾ الذي جاء بصيغة الخطاب، وهذا بطريق الالتفات لسر بلاغي هو بيان المنّة العظيمة على النبي – صلى الله عليه وسلم – وعلى أمته بهذا القرآن الكريم.

سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

- المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب جاء لسبب بلاغي هو بيان إتمام المنّة العظيمة من الله - تعالى - على النبي – صلى الله عليه وسلم – وعلى أمته بهذا القرآن الكريم،

وأن نزوله مفرقاً إنما هو لحكمة بليغة منها تثبيت قلبه – صلى الله عليه وسلم – وتيسير حفظه عليه وعلى أمته، وتوجيه الخطاب للنبي تشريف له وتعظيم لجنابه، لذا انتقل من الغيبة إلى خطابه للنبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله لنثبت به فؤادك.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

قال الإمام البقاعي: «ولما كان للنزول مفرقا فوائد جليلة، أشار – سبحانه وتعالى - إلى عظمتها بقوله معبرا للإشارة إلى ما اشتملت عليه من العظمة بأداة البعد: {كذلك} أي أنزلناه شيئا فشيئا على هذا الوجه العظيم الذي أنكروه {لنثبت به فؤادك} بالإغاثة بتردد الرسل بيننا وبينك، وبتمكينك وتمكين أتباعك من تفهم المعاني، وتخفيفا للأحكام، في تحميلها أهل الإسلام، بالتدريج على حسب المصالح، ولتنافي الحكمة في الناسخ والمنسوخ، لما رتب فيه من المصالح، وتسهيلا للحفظ لا سيما والأمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وتلقينا للأجوبة في أوقاتها، وتعظيما للإعجاز»[1].

قال العلّامة أبو السعود «{كذلك لنثبت به فؤادك} استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالهم الباطل{ولا يأتونك بمثل} أي لا يأتونك بكلام عجيب يريدون به القدح في حقك وحق القرآن {إلا جئناك} في مقابلته {بالحق} بالجواب الثابت الذي ينحي عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال. وفيه من الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده - صلى الله عليه وسلم - مالا يخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأسئلة وبصحة جميع الأجوبة وبإشارته منبئ عن بطلان السؤال

١) تفسير أبي السعود (٦/٢١٦). بتصرف.

الأخير وصحة جوابة إذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم من تلك الحيثية»[1].

ويقول العلامة الزمخشري: «كذلك أنزل مفرقا. والحكمة فيه: أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، وأيضا: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقا»[2].

وعدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام إعلاما له بحكمة تنزيله مفرقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول بما فيه تثبيت قلبه والتيسير عليه. والحكمة. وفيه: تقوية بتفريقه فؤاد النبي حتى يعيه ويحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزأ عقيب جزء»[3].

وقد أطال ابن عاشور - رحمه الله - التقرير في تحرير هذا الملمح بقوله: عود إلى معاذيرهم وتعللاتهم الفاسدة إذ طعنوا في القرآن بأنه نزل منجما، وقد جاء قوله: كذلك لنثبت به فؤادك ردا على طعنهم، فهو كلام مستأنف فيه رد لما أرادوه من قولهم: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة

١) نظم الدرر (٣٧٨/١٣). بتصرف.
٢) تفسير الكشاف (٢٧٧/٣)، تفسير البغوي (٨٣/٦). بتصرف.
٣) تفسير ابن كثير (٩٢/٦). بتصرف.

وعدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول - عليه الصلاة والسلام - إعلاما له بحكمة تنزيله مفرقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول بما فيه تثبيت قلبه والتيسير عليه. ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه. والفؤاد: هنا العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه. وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجما بكلمة جامعة وهي لنثبت به فؤادك لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس، ولهذا عدل عن الغيبة إلى الخطاب وفيه تشريف للنبي - صلى الله عليه وسلم -»[1].

- عدل السياق القرآني هنا عن خطابهم إلى خطاب الرسول - عليه الصلاة والسلام – وذلك إعلاما له بحكمة تنزيل القرآن مفرقا، وفي ضمن هذا الإعلام امتنان على الرسول، بما فيه من تثبيت لقلبه والتيسير عليه. والحكمة فيه: تقوية بتفريقه فؤاد النبي حتى يعيه ويحفظه، لأن المتلقن إنما يُقوّى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لما حصل المقصود في حفظه، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة.

****

١) التحرير والتنوير (١٨/١٩). بتصرف.

المبحث الثاني
الالتفات في غير الضمائر في سورة الفرقان

المطلب الأول: الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قال تعالى:(وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾) [سورة الفرقان:-7 ٨].

معنى الآية إجمالاً:

وفي هذا يقول الإمام البقاعي: « لقد أعمل الكفار عقولهم فيما أبدوه من ذلك مما ظنوا أنه دليل على عدم الرسالة، فقالوا مستفهمين تهكما بوصفه، قادحين فيه بفعله، يقولون مال هذا الرجل الذي يدعي أنه رسول، وفي هذا إشارة تفهم الاستهانة والتصغير؛ ثم أظهروا السخرية بقولهم: {الرسول} أي الذي يزعم أنه انفرد عن بقية البشر في هذا الزمان بهذا الوصف العالي، لكنه يُعاب عليه أنه {يأكل الطعام} مثلنا وأيضاً {ويمشي في الأسواق} أي التي هي مطالب الدنيا، كما نمشي.

ويقولون لما كانت ترجمة ما مضى: ما له مثلنا وهو يدعي الاختصاص عنا بالرسالة؟ أتبعوه التعنيف على عدم كونه على واحد من وجوه مغايرة على سبيل التنزل جوابا لمن كأنه قال: فماذا يفعل؟ بقولهم: {لولا} أي هلّا، وهي تأتي للتوبيخ، وهو مرادهم {أنزل} أي من السماء، من أي منزل كان، منتهيا {إليه} أي على الهيئة التي هو عليها في السماء {ملك} أي من الملائكة الله على هيئاتهم المباينة لهيئات الآدميين {فيكون} ذلك الملك

وإن كان هو إنسانا {معه نذيرا} فيكون ممتازا بحال»[1].

- كلامهم هذا كأنهم يقولون هذه النبوة والعظمة ليس لواحد منا، وكان الأفضل – من وجهة نظرهم – أن تكون لأحد غيره ليكون أهيب في النذارة، لما له من الهيبة والقوة، وكأنهم لما تكلم القرآن بلسان هم عبر بالماضي وذلك إعلاما منهم بأن مرادهم لابد أن يكون عندما يكلمنا هذا الرسول بما أرسل به لا يأكل مثلنا ولا يمشي في الأسواق وبخاصة عندما يظهر لنا فينبغي أن يكون على غير الهيئة التي عهدناها عن البشر، فيجب أن من نزول المَلَك عليه في كل وقت وحين ونراه عياناً، ويكون مصاحباً له عند تبليغه الرسالة للناس. ثم تحدثوا كذلك بأنه إن لم يحدث هذا ويكون الملك معه دائما فلا أقل من أن يكون معه كنز لينفق منه، فإن لم يتعهد كل وقت نفد لهذا لابد من وجود الكنز معه دائما حتى لا ينتهي.

يقول العلّامة البقاعي «ولما كان الإلقاء في قوله: {أو يلقى إليه كنز} دالا على العلو، عدلوا عن أداة الاستعلاء التي تقدم التعبير بها إلى حرف النهاية فقالوا: {إليه} أي إن لم تكن له تلك الحالة {كنز} أي يوجد له هذا الأمر ويتجدد له إلقاؤه غير مكترث ولا معبوء به، برفعه عن مماثلتنا العامة من كل وجه، وأيضا التعبير في هذا والذي بعده بالمضارع أدل على تكالبهم على الدنيا وأنها أكبر همهم. وهكذا بعد أن فضحت الآيات السابقة مقولة المشركين في القرآن الكريم، بأنه إفك مفترى، وأنه أساطير الأولين اكتتبها محمد، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا- بعد أن فضحت الآيات السابقة تلك المقولة الظالمة عن المشركين في القرآن

١) نظم الدرر (٣٤٣/١٣). بتصرف.

الكريم، ورد الله سبحانه وتعالى كذبهم وافتراءهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [سورة الفرقان: ٦]. جاءت هذه الآيات لتفضح مقولتهم في النبي نفسه.. فإن لهم فيه مقولات، كتلك المقولات التي يقولونها في كلمات الله التي حملها إليهم»[1].

«وفي هذا السياق انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام. ثم حكى عنهم نوعا ثالثا من أباطيلهم وهو تكذيبهم بيوم القيامة، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى يسمعون لها تغيظا وزفيرا، ووضعهم فيها مقرنين في الأصفاد، وندائهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف ما يلقاه المتقون في جنات النعيم: مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذي لا خلف لوعده»[2].

- لما أتم الله – سبحانه وتعالى – الكلام عن القرآن ومن أُنزل عليه وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - بذِكْر الشيء المُنزَل والمُنزَل عليه، وأخبرنا عن كثرة طعنهم في النبي الذي هو المقصود بالذات من الرسالة، ومدى تشويههم للقرآن الكريم، وكلامهم فيه بالباطل، ومن ثم أقام الله تعالى الأدلة على كذبهم، أتبع ذلك بالإخبار عن كثرة طعنهم في الرسول الذي أتى به، ويخبرنا متعجبا منهم إذ هم يدّعون أن عقولهم أصفى العقول أفكارا، وأعلاها دراية، فكيف يقولون ما يقولون في القرآن ومن جاء به، ويعبدون غير الله.

---

١) نظم الدرر (٣٤٤/١٣). التفسير القرآني للقرآن (١٣٦٠/٩). بتصرف.
٢) تفسير المراغي (١٥٣/١٨). بتصرف.

موضع الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

جاء الالتفات في (وَقَالُوا) إلى (وَقَالَ الظَّالِمُونَ) التفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر، حيث جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ) التفات عن المضمر في قوله تعالى: (وقالوا) الذي بصيغة الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا) الذي جاء بصيغة الاسم الظاهر في قوله تعالى: (قال الظالمون)، وهذا بطريق الالتفات من الضمير إلى الاسم الظاهر وذلك لبيان شناعة ما وقع فيه هؤلاء الظالمون من أقوالهم في النبي.

سبب الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

- المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب جاء لسبب بلاغي هو بيان الشناعة في طعنهم في الرسول وما جاء به من القرآن وإظهارا لمدى ظلمهم وتشهيرا بهم جراء ما تورطوا فيه من البهتان.

أراء العلماء في الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا) «هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر وضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه إضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته - صلى الله عليه وسلم - إلى المسحورية أي قالوا للمؤمنين {إن تتبعون} أي ما تتبعون {إلا رجلا مسحورا} قد سُحِر فغُلب على عقله وقيل ذا سحر وهي الرئة أي بشرا لا ملكا على أن

الوصف لزيادة التقرير والأول هو الأنسب بحالهم»[1].

««وقال الظالمون» بدل من قوله «وقالوا» إظهارا للصفة التي يدمغهم بها الله، في مقابل تلك المقولات المنكرة، الضالة، التي يقولونها في النبي. إنهم ظالمون، جائرون عن الطريق المستقيم، راكبون طرق الضلال، والهلاك وإنما قال {الظالمون} فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا عليهم ظلم ما قالوه. تسجيلا عليهم بوصف الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوا، لكونه إضلالا خارجا عن حد الضلال»[2].

وقال الألوسي «{وقال الظالمون} هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه مع ما فيه من نسبته - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه أو إلى ما لا يصلح أن يكون متمسكا لما يزعمون من نفي الرسالة، وقيل: يحتمل أن يكون المراد، وقال الكاملون في الظلم منهم وأيا ما كان فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين إن تتبعون أي ما تتبعون إلا رجلا مسحورا سحر فغلب على عقله فالمراد بالسحر ما به اختلال العقل»[3].

وقال ابن عاشور «{الظالمون} هم المشركون، فغير عنوانهم الأول إلى عنوان الظلم وهم هم تنبيها على أن في هذا القول اعتداء على الرسول بنبزه بما هو بريء منه وهم يعلمون أنه ليس كذلك فظلمهم له أشد ظلم - صلى الله عليه وسلم -»[4].

****

١) تفسير أبي السعود (٢٠٤/٦). الدر المصون (٤٥٩/٨). بتصرف.
٢) التفسير المنير للزحيلي (١٩/١٩). التفسير القرآني للقرآن (١٣٦٢/٩). بتصرف.
٣) تفسير الألوسي (٤٢٨/٩). بتصرف.
٤) التحرير والتنوير, ابن عاشور (٣٢٩/١٨). بتصرف.

المطلب الثاني: الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر:

قال تعالى:(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠) [سورة الفرقان: ٢٠].

معنى الآية إجمالاً:

«في الآية تسلية من الله للرسول وتصبيرا له على قولهم: {أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها} بقوله. {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟} أي وابتلينا أيها الناس بعضكم ببعض، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه من لذات الحياة ونعيمها، لنختبر الفقير بصبره على ما حُرِم مما أعطيه الغنيّ، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة، وكيف يكون رضا كل منهم بما أُعطيَ وقُسم له، وطاعته ربه على حرمانه مما أُعطيَ سواه. وكأن السياق القرآني يقول إنني ربّ محمد ولهذا لم أعط محمدا الدنيا وجعلته يمشي في الأسواق يطلب المعاش، حتى أبتليكم وأختبر طاعتكم وإجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه وهو لم يرجُ منكم عرضا من أعراض الدنيا، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى اتباعه، طمعا في أن ينال شيئا من دنياه»[1].

ويقول الإمام البقاعي: «لما أبطل سبحانه ما وصموا به رسوله - صلى

١) تفسير المراغي (١٦١/١٨). بتصرف.

الله عليه وسلم - وذكر ما جزاهم عليه. وما أعد لهم وله ولأتباعه، ونفى ما زعموه في معبوداتهم وختمه بتعذيب الظالم، ذكر ما ظلموا فيه من قولهم {ما لهذا الرسول} ونحوه، فبين أن ما جعلوه من ذلك وصمة في حقه هو سنته سبحانه في الرسل من قبله أسوة لنوعهم البشري، وأتبعه سرّه فقال زيادة في التسلية والتعزية والتأسيه بالسابقين: {وما أرسلنا} بما لنا من العظمة. {قبلك} أي يا محمد أحدا {من المرسلين إلا} وحالهم {إنهم ليأكلون الطعام} ما نأكل ويأكل غيرك من الآدميين {ويمشون في الأسواق} كما تفعل ويفعلون أي إلا وحالهم الأكل والمشي لطلب المعاش كحال سائر الآدميين، وهو يعلمون ذلك لما سمعوا من أخبارهم، وهذا تأكيد من الله تعالى فإنهم لا يكذبونه عليه - الصلاة والسلام -، ولا يعتقدون فيه نقصا، وإبطال لحجتهم بما قالوه من ذلك، وإقامة للحجة على عنادهم، وأنهم إنما يقولونه وأمثاله لما تقدم من رسوخ التكذيب بالساعة في أنفسهم {وجعلنا} أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة {بعضكم لبعض فتنة} بأن جعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه الدنيا، ليظهر ما نعلمه من كل من الطاعة والمعصية في عالم الغيب للناس في عالم الشهادة، فنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغني أو جزعه، والملك ومن في معناه من الأشراف بصبرهم على ما أعطيه الرسول من الكرامة والبلوغ بالقرب من الله إلى ما لا يبلغونه مع ما هم فيه من العظمة»[1].

والناظر في الآية الكريمة في قوله تعالى:(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ

١) نظم الدرر (٣٦٤/١٣). بتصرف.

ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) يجد أن المعنى الذي تدل عليه. تسلية النبي وتصبيرا له على ما يلاقيه من الأذى وتبين أن جميع من سبق النبي محمد من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذّي به ويتقوون به على عبادة ربهم، كما أنهم كغيرهم من البشر غيرهم يمشون في الأسواق من أجل التكسب والتجارة، ولم يقل أحد أبداً إن هذا نقصاً فيهم يضع من كرامتهم أو يُزرى بهم، وليس لهم أي امتيازات بشرية عن سواهم من البشر هذه الأمور البشرية والتي لا يستغني عنها أحد، لكنهم امتازوا بالصفات الفاضلة، والخلال السامية، والآداب العالية، وذلك بالنبوة والرسالة التي وهبهم الله إياها، كذلك كان تفضيلهم على البشر بما أظهره الله على أيديهم من خوارق العادات، وما أعطاهم من المعجزات والتي هي من خصوصية الأنبياء فقط، وكل هذا مما يستدل به كل ذي عقل سليم، وبصيرة نافذة صحيحة ترى صدق ما جاء به الرسل من عند ربهم. وعلى هذا فليس محمد - صلى الله عليه وسلم - ليس بدعا من الرسل، إذا كان يأكل ويشرب أو يمشى في الأسواق، وليس هذا بطعنٍ فيه أو ذم له، وليس في هذا مطعن في صدق نبوته كما يزعم هؤلاء الكافرين.

وهكذا نرى أنه بعد أن ذكر الله مقالة الكفار الظالمة الباطلة التي طعنوا فيها زوراً وبهتاناً على الرسول – صلى الله عليه وسلم – كقولهم عنه {مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} على حد زعمهم الباطل أن هذه الأفعال التي يقوم بها الرسول مما لا ينبغي للرسول فعلها مثله

مثل غيره، أردوا بذلك عدم أهليته للنبوة، لكن السياق القرآني جاء للاحتجاج عليهم بأن محمدا ليس بدعا من إخوانه من الرسل، فكلهم كانوا يفعلون مثل فعله. وفى هذا الخطاب تسلية له - صلى الله عليه وسلم - وتصبير له على أذاهم، وتطمينا له أنه على الحق فلا يبتئس بما يقولون.

موضع الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر:

- جاء الالتفات في قوله تعالى:(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ) الذي جاء بضمير التكلم في قوله تعالى: (وما أرسلنا) إلى الاسم الظاهر في قوله تعالى: (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) الذي جاء بالاسم الظاهر في قوله تعالى: (وكان ربك) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وكنا بك) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر، وذلك لبيان وكمال قدرة الله - تعالى - وعنايته بنبيّه - صلى الله عليه وسلم - وتشريفه له.

سبب الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر، إظهاراً لآثار الربوبية في تشريف النبيّ - صلى الله عليه وسلم – وفي هذا ما فيه من التسلية والتعزية له من ربه على ما لاقاه من أذى المشركين وكلامهم الباطل فيه وفيما نزل عليه من القرآن.

أقوال العلماء في الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر:

قال أبو السعود «{أتصبرون} المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته صلى

الله عليه وسلم فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعم صبركم وقوله تعالى (وكان ربك بصيرا) وعد كريم للرسول بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له- صلى الله عليه وسلم- بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم -. ولما كان الاختبار ربما أوهم نقصا في العلم، وكان إحسانه سبحانه إلى جميع الخلق دون إحسانه إلى سيدهم وعينهم، وخلاصتهم وزينهم: محمد - صلى الله عليه وسلم -، وكان أعلمهم بتنزيهه وتعظيمه، وكان امتحانهم بجعله نبيا عبدا مع كونه في غاية الإكرام له ربما ظنوه إهانة، نفى ما لعله يوهمه كل من الاستفهام والامتحان في حق الله – سبحانه وتعالى - وحق نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فقال صارفا وجه الخطاب إليه: {وكان ربك} أي المحسن إليك إحسانا لم يحسنه إلى أحد سواك، لا سيما بجعلك نبيا عبدا»[1].

«{وكان ربك بصيرا} الكلام فيه تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عقب بقوله: {أتصبرون} وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر وفي الإسناد إلى وصف الرب مضافا إلى ضمير النبي إلماع إلى هذا الوعد فإن الرب لا يضيع أولياءه. وهذا تصبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبعدوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل»[2].

- وفي هذا الكلام من تلوين الخطاب لأجل التعميم فيكون الخطاب

١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢١٠). بتصرف.
٢) البحر المحيط في التفسير (٨/ ٩٥). بتصرف.

لسائر الرسل عليهم السلام ومن سار في دربهم بأن الله معهم وبصير بما يعمل هؤلاء الظالمون، وذلك بطريق التغليب وهذا تسلية من الله للرسل خاصة لأنهم أشد الناس بلاء، وكذلك تسلية لأتباعهم عامة لأنهم أتباع الرسل والمبلغين عنهم.

****

المطلب الثالث:

الالتفات عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٥].

معنى الآية الكريمة إجمالاً:

- لما كان للكفار في هذه الحياة الدنيا بعضا من العز والقوة والمنَعة ما يجعلهم يتكبرون على المؤمنين ويتركون رسالة ربهم ولا يتبعون أنبيائه. وجعلهم ما هم فيه مما أعطاهم الله من زينة الدنيا جعلهم يتعجبون من مصيرهم الشنيع يوم القيامة، وبخاصة لما رأوا حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم وحسن المقيل، بين لهم أن الأمر في هذا اليوم العظيم على غير ما عهدوه في الدنيا فهذا يوم الحساب والجزاء، فقال جلّ شأنه عن أهوال يوم القيامة (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) فالسماء تتشقق تشققاً هائلاً عظيماً لتنزل الملائكة منها ليحضروا الحساب والجزاء للعباد وإن كان في هذا التنزيل وكيفيته خفاء كبيرا على الخلق. فتشقق السماء يكون شبيها بتشقق الأرض لإخراج النبات فهو يخرج من خلال شقوقها. {ونزل الملائكة} منها بالتدريج ليس دفعة واحدة بأمر من الله لا يمكنهم التخلف عنه، {تنزيلا} وفي أيديهم الصحائف التي فيها أعمال العباد.

«يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) وذلك الغمام هو الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات فتنفطر له السماوات وتشقق وتنزل ملائكة كل سماء فيقفون صفاً صفاً، إما صفا واحدا محيطا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفا ثم السماء التي تليها صفا وهكذا.

والمقصود أن الملائكة -على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف خصوصا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا يكون هذا اليوم عسيراً على الكافرين. لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن فإنه يسير عليه خفيف الحمل»[1].

موضع الالتفات عن الفعل المضارع إلى الفعل الأمر:

- جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ) الذي جاء بالفعل المضارع في قوله تعالى: (تشقق) إلى الفعل الماضي في قوله تعالى: (وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) الذي جاء بالفعل الماضي في قوله تعالى: (ونزل) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وتنزل) ليتوافق السياق، لكن القرآن عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن المضارع إلى الماضي، وذلك لبيان كمال قدرة الله - تعالى – وبعث الهيبة والخوف في قلوب المستمعين وبخاصة المكذبين.

١) تفسير السعدي (ص: ٥٨١). بتصرف. نظم الدرر (٣٧٢/١٣).

سبب الالتفات عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي:

- إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات عن المضارع إلى الماضي، وذلك لبيان كمال قدرة الله - تعالى - وبعث الهيبة والخوف في قلوب المستمعين وبخاصة المكذبين. وهذه الصيغة بالفعل الماضي مما يوقع ويبعث الهيبة والرعب والقلق في قلوب الكافرين من هذا المشهد الرهيب المهيب يوم القيامة لعلهم يرتدعوا ويرجعوا عن غيّهم وعنادهم.

أقوال العلماء في الالتفات عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي:

يقول أبو السعود وابن عاشور– رحمه الله تعالى – في قوله تعالى {ونُزّل الملائكة تنزيلا} تنزّلاً عجيبا غير معهود. وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وفيه الشدة والتهويل. وأكد نزل الملائكة بالمفعول المطلق لإفادة أنه نزول بالذات لا بمجرد الاتصال النوراني مثل الخواطر الملكية التي تشعشع في نفوس أهل الكمال»[1].

«والتنزيل النزول فريقا بعد فريق، أي أنه لا يكون حساب واحد، بل حساب بعد حساب، ومن شدد عليه الحساب عذب، وإن هذه الآية وأشباهها في سموها ومعانيها تهديد بيوم البعث الذي أنكروه، وإنه يوم يضطرب فيه الكون، ويكون فيه الهول، وإن السلطان حينئذ يكون لله تعالى وحده»[2].

وفي الآيات حكاية لأقوال ومواقف أخرى للكفار وردود ووعيد رباني، وتصوير لما سوف يلقونه يوم القيامة. وهي متصلة بالسياق السابق واستمرار له كما هو واضح. وأسلوب الآية الأولى يُلهم أن اقتراح الكفار-

١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢١٣). التحرير والتنوير (١٠/١٩). بتصرف.
٢) زهرة التفاسير (١٠/٥٢٦٩). بتصرف.

الذين ينكرون البعث- استنزال الملائكة أو تمكينهم من رؤية الله كان من باب التحدي والتعجيز مع الإنكار والاستهزاء. والآيات التالية رد مقابل لذلك، فإنهم سوف يرون الملائكة حيث يتشقق عنهم الغمام فينزلون من السماء ولكن يوم نزولهم ورؤياهم لهم يكون هو اليوم الموعود الذي يكون فيه المجرمون في شر حال بينما يكون المؤمنون أصحاب الجنة في خير حال. ولن يكون للمجرمين فيه بشرى ولا أمل، ويهتف بهم الملائكة أن كل ذلك حرام عليكم، وسيرون الله قد أحبط جميع أعمالهم في الدنيا فذهبت هباء منثورا لا فائدة لهم منها فما أشد وقع هذا عليهم، وما أشد ندمهم وقتها على تفريطهم في حق الله»[1].

«أما نزول الملائكة فظاهر، ومعنى تنزيلا توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه. ولما كان بصيغة الماضي فوجهه على ما قيل الإشارة إلى سرعة الفعل»[2].

- وتحويل السياق من المضارع إلى الماضي المشدد {نزّل} أراد الله – سبحانه وتعالى – وذلك لبعث الهيبة والخشية في قلوب المستمعين وبخاصة الكافرين المكذبين بالبعث والنشور، وحتى يُحرك قلوبهم فتُخبت لله الخالق الرازق ويتركوا ما هم عليه من العناد والتكبر عن الحق الذي أتاهم به النبي – صلى الله عليه وسلم – فهذا النزول حيث أنه نزول لا يعلم أحد كيفيته ومصدره، وهذا أوقع شيء في بعث الهيبة والرعب والقلق من هذا المشهد الرهيب الشديد على النفس.

****

١) التفسير الحديث (٣/٧٧). بتصرف.

٢) البحر المديد (٤/٩٢). تفسير الرازي (٢٤/٤٥٣).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين صاحب المنن جزيل العطاء الوهاب ذي القوة المتين أحمده سبحانه وأشكر فضله عليّ أن هداني بهداه إلي اختيار موضوع بحثي وأعانني بكرمه وإحسانه علي المضي فيه ووفقني بفضله إلي أن أصل إلي ختام دراستي لأسلوب الالتفات في القرآن الكريم دراسة تحليلية من (سورة الأنبياء وحتى سورة الفرقان). [حيث أن أصل هذا الكتاب هو بحثي لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن].

أجدني وأنا أكتب خاتمة رسالتي مزيجا من المشاعر, فرحا لا يقدر مقداره بوصولي إلي هذه اللحظة التي كم تاقت نفسي إلي الوصول إليها. وخوفا من التقصير في حق القرآن وما فرضه ربي عليّ. وحزنا لعدم تمكني من إنجاز كل ما تاقت نفسي إلي إنجازه في هذه الدراسة ورغبة في توصيات شتي أتقدم بها إلي جميع أهل الله في الأرض أهل القرآن, إلى كل من وهب حياته لتحقيق مراد الله في أرضه وعباده, إلى كل من أراد المساهمة بما يستطيع في إعلاء كلمة الله في كل أرجاء المعمورة, وكل من يريد بيان إعجاز كلامه الباري - سبحانه وتعالى – أقول: عليكم بكتاب الله تعالى ففيه كل ما تريدون, أقبلوا على دراسته دراسة متأنية, وغوصوا في أعماقه لاستخراج بعض ما فيه من درر يحتاج لها كل مسلم يريد معايشة كلام ربه ويسير على طريقه.

وأري من خلال هذه المعايشة لكتاب الله في هذه الدراسة المتواضعة أن كل ما قدم في هذا الشأن هو غيض من فيض, وقليل من كثير مما تحتاجه الدراسات القرآنية البلاغية والبيانية, وبيان مدى علاقة الأدب والبلاغة بها يحتاج الكثير والكثير.

النتائج

- إن الالتفات لون من ألوان الصياغة وأسلوب من أساليب البيان يقتضي فيه السياق القرآني مخالفة الأصل مخالفة لفظية لزيادة معنىً يتطلبه المقام.
- للالتفات أسرار بلاغية غاية في الجمال والروعة والدقة, وهذه الأسرار البلاغية هي التي من أجلها يكون الالتفات من حال إلى آخر.
- قد كشفت الدراسة عن أسرار عجيبة للالتفات لا يحكمها إلا سياق النص فقد يظهر اللون من الالتفات وضده في نفس الوقت وعلي سبيل المثال قد يأتي الالتفات من الغيبة إلي الخطاب لتعظيم شأن المخاطب وإجلاله كما في بعض الأمثلة التي جاءت في ثنايا البحث, ويكون هذا الالتفات نفسه في موضع آخر للتحقير والتبكيت, وفي موضع آخر يكون لإلزام الخصم بالحجة كما هو جاري مع مخاطبة أعداء الله. إلى غير ذلك مما هو مبثوث في ثنايا هذه الدراسة. وكل هذا إنما جاء لأغراض بلاغية هامة يعرف الدارس من خلالها مدى عظمة القرآن ودلالة ألفاظه وقوة أسلوبه, وسِعة معانيه, كيف لا وهو من عند الحكيم الخبير – سبحانه.
- النكات البلاغية, وأساليب القرآن الكريم التي عدل عنها إلى غيرها والتي ظهرت من خلال هذه الدراسة, تدل دلالة واضحة على سعة آفاق اللغة العربية وتعدد أساليبها, مما جعلها أهلاً لأن ينزل الله القرآن بها دون سواها.
- كما أن أسلوب الالتفات في الضمائر القرآنية, من صيغة إلى أخرى ومن أسلوب إلى أسلوب آخر, يغلب وقوعها في الآيات التي تتحدث عن أمور الآخرة والمعاد وأمور الحساب والجزاء، وفي هذا دليل على عظمة هذا الأسلوب، وذلك لاستحضار الأمور العظيمة وحكاية الحال الماضية، وهما إنما يكونان فيما يستعظم من الأمور, مما يُكسب الأسلوب جزالة، ويكسوه روعة وجمالا.

- أن سياق الكلام من أسلوب لآخر, فيه دعوة لتهذيب النفس، والتغلغل في أعماقها، مما يبعث فيها الكوامن التي أودعتها الفطرة من الرجاء والخوف والتذلل والتسليم لله.

- إن الاختلاف الأسلوبي القرآني بين مخاطبة المؤمنين والحديث في شأنهم، وبين مخاطبة الكافرين والمنافقين, يبين مدى تعظيم القرآن الكريم للمؤمن فتجده يلاطفه ويلين له الخطاب أحياناً، وأحيانا أخرى يقدم الكلام بما يشعر المؤمن بحب الله له, ورحمته به, وتشريفه إياه، حتى إنه ليطلب من النبي أن يلطف في خطابه للمؤمنين، وأن يلين لهم، كذلك نجد الغلظة في خطاب الكافرين، والإخبار عنهم وتحقيرهم, وكلامه لهم بما يُشعِر بوضاعتهم، حتى أنه يترك خطابهم إلى خطاب غيرهم فيسقط منزلتهم بصرف الكلام عنهم، ويوجهه إلى من هو أولى به، وأسمع له.

- إن الكثير من المواطن القرآنية التي يظن القارئ لها, أن فيها إشكالات لقِصَر فهمه لها، إنما هي مواطن لأسرار البلاغة في القرآن الكريم، وهي دلالة واضحة على علوّ شأنه, وهذه المواطن لا تظهر دقائقها ومعانيها ومكنوناتها إلا بتأمل وتدبر، وقد حث الكتاب الكريم على التدبر في آياته، والنظر في مكنونه أسراره.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

كَتبتُ وقد أيقنتُ يومَ كتابتي * بأن يدِي تَفنَى ويَبقَى كِتابُها**
فإن كَتَبَتْ خيراً ستُجزَى بمثلهِ * وإن كَتَبَتْ شرّاً عليّ حسابُها**

وكتبه: أبو محمود عبد الجواد أحمد عبد المولى آل موسى السيوطي
محافظة أسيوط – ديروط –قرية نجع سويلم

تم
بحمد
الله

فهرس

إهداء ٥
شكروعرفان ٦
المقدمة ٧
الفصل الأول: مفهوم الالتفات عند المفسرين وعلماء البلاغة ١٠
المبحث الأول: مادة الالتفات ومفهومه ١١
المطلب الأول: الالتفات لغة: ١٢
المطلب الثاني: الالتفات اصطلاحاً: ١٤
المبحث الثاني: الالتفات عند البلاغيين وأهل التفسير قديما وحديثا..... ١٦
المطلب الأول: الالتفات عند علماء البلاغة القدامى: ١٧
المطلب الثاني: الالتفات عند علماء التفسير القدامى:..... ٢٥
المطلب الثالث: الالتفات عند علماء البلاغة والتفسير المحدثين:..... ٢٧
المبحث الثالث: أنواع الالتفات وجماليّاته وفوائده ٣٠
المطلب الأول: الالتفات في الضمائر: ٣١
المطلب الثاني: التفات في الأعداد:..... ٣٨
المطلب الثالث: تقسيمات بلاغية أخرى للالتفات:..... ٤١
المطلب الرابع: جماليات الالتفات وأهدافه:..... ٤٦
المبحث الرابع: دلالة أسلوب الالتفات عند علماء البلاغة ٥١
المبحث الخامس: مفهوم الضمائر وأقسامه ٥٦
المطلب الأول: مفهوم الضمائر في اللغة:..... ٥٧
المطلب الثاني: الضمائر في الاصطلاح: ٥٩
الفصل الثاني: الالتفات في سورة المؤمنون ٦٢
المطلب الأول: في السورة وآياتها ومكيتها وترتيبها:..... ٦٣
المطلب الثاني: مناسبة السورة الكريمة وفضله:..... ٦٥

المطلب الثالث: علاقة سورة المؤمنون بسورة الحج قبلها: ٦٨
المطلب الرابع: ما تحدثت عنه السورة إجمالا: ٧٢
المبحث الثاني: الالتفات في الضمائر في سورة المؤمنون ٧٧
المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب: ٧٨
المطلب الثاني: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة: ٨٤
المطلب الثالث: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة: ٨٩
المطلب الرابع: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة: ٩٤
المطلب الخامس: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة: ١٠١
المبحث الثالث: من صور الالتفات في غير الضمائر في سورة المؤمنون... ١٠٩
المطلب الأول: الالتفات عن الاسم إلى الفعل: ١١٠
المطلب الثاني: الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع: ١١٦
المطلب الثالث: الالتفات عن التثنية إلى المفرد: ١٢٢
المطلب الرابع: الالتفات عن المفرد إلى الجمع: ١٢٧
المطلب الخامس: الالتفات عن المفرد إلى الجمع: ١٣٦
المطلب السادس: الالتفات عن المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم: ١٤٢
الفصل الثالث: الالتفات في سورة النور ١٤٧
المطلب الأول: السورة و آياتها ومكيتها وترتيبها: ١٤٨
المطلب الثاني: علاقة سورة النور بسورة المؤمنون وسبب نزولها: ١٥١
المطلب الثالث: حديث السورة إجمالا: ١٥٣
المبحث الأول: الالتفات في الضمائر في سورة النور ١٥٦
المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب: ١٥٧
المطلب الثاني: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب: ١٦٢
المطلب الثالث: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب: ١٦٨
المطلب الرابع: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة: ١٧٤

المطلب الخامس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:..... ١٨١
المطلب السادس: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:..... ١٨٧
المبحث الثاني: الالتفات في غير الضمائر في سورة النور..... ١٩١
المطلب الأول: التفات عن التثنية إلى المفرد:..... ١٩٢
المطلب الثاني: الالتفات من المضمر إلى الاسم الظاهر: ١٩٧
الفصل الرابع: الالتفات في سورة الفرقان ٢٠٢
المطلب الأول: السورة و آياتها ومكيتها وترتيبها: ٢٠٣
المطلب الثاني: مناسبة السورة الكريمة لما قبله سورة النور: ٢٠٥
المطلب الثالث: ما تحدثت عنه السورة إجمالا: ٢٠٧
المبحث الأول: الالتفات في الضمائر في سورة الفرقان ٢١٠
المطلب الأول: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:..... ٢١١
المطلب الثاني: من الالتفات من الغيبة إلى التكلم:..... ٢١٨
المطلب الثالث: عن الالتفات من التكلم إلى الغيبة: ٢٢٣
المطلب الرابع: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:..... ٢٣١
المطلب الخامس: الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:..... ٢٣٧
المبحث الثاني: الالتفات في غير الضمائر في سورة الفرقان..... ٢٤٣
المطلب الأول: الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:..... ٢٤٤
المطلب الثاني: الالتفات عن الضمير إلى الاسم الظاهر:..... ٢٤٩
المطلب الثالث: الالتفات عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي:..... ٢٥٥
الخاتمة..... ٢٥٩
النتائج..... ٢٦٠

رقم الإيـــداع

الترقيم الدولي ISBN

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو 2017

www.lotusfreepub.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف